

القسم الأول

المقصود بالتفكير وعلاقته ببعض الصفات الإنسانية

• تمهيد

• التفكير

• التفكير في علاقته ببعض الصفات الإنسانية

الفصل الأول

التفكير

* تمهيد

* المقصود بالتفكير وخصائصه ومهارته

* التفكير والفهم

* التفكير في الحياة العملية المعاصرة:

- طرائق الفهم .

- طرائق الصواب .

- طرائق الخطأ .

* تمهيد :

يواجه الفرد فى حياته مشكلات يومية، قد تتصل بعمله المهنى أو الوظيفى، وقد ترتبط بالأساليب التى يتبعها لتوفير مصادر الرزق، وقد تكون لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمستقبله العلمى، وقد ٠٠٠، وقد ٠٠٠ إلخ. فالمشكلات اليومية عديدة ومتعددة، وعلى الفرد أن يواجهها دون أن يهاندنها ويستسلم لها، وعلى الفرد - أيضا - أن يولكبها ويتفاعل معها للخروج من سيطرتها وهيمنتها، حتى لا تسبب له أزمات وأزمات. فالهروب من المشكلات لن يحلها أبداً، وإنما يسهم هذا الهروب فى تعقد وتعقيد حياة الإنسان نفسه.

وحتى يواجه الفرد مشكلاته، عليه أن يستخدم مثالياته وأفكاره وخبراته وطرق تفكيره ومهاراته واتجاهاته وتوجهاته، وما يعن له من آليات ذهنية أخرى، تساعده على الخروج من مأزق تلك المشكلات. وعليه، يمكن القول - مجازاً - أن التفكير هو جميع سبل الحياة التى يواجه بها الفرد مشكلاته، مضافاً إليها سلوكه الشخصى تجاه تلك المشكلات، ولذلك يمكن الزعم بأن التفكير له نزعة إنسانية بحتة.

وبالنسبة لنزعة التفكير الإنسانية، علينا أن نقر أنها قد تكون إيجابية وتتحو نحو الخير والأعمال الطيبة، وقد تكون سلبية وتتجه نحو الشر والتدمير. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، رغم وجود هذه النزعة الإنسانية للتفكير، والقول بأن التفكير يخص الإنسان دون سائر الكائنات الحية الأخرى، فإننا لا نستطيع أن نجزم أو أن نقدم دلالة قاطعة بأن تلك الكائنات لا تفكر. يقولون أن الكائنات غير الإنسانية تعتمد فى أعمالها وأفعالها على أسلوب المحاولة والخطأ، ولكن الإنسان - أيضا - يعتمد فى بعض ممارساته، وخاصة تلك الممارسات الجديدة وغير المألوفة بالنسبة له، على أسلوب المحاولة والخطأ.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، من يستطيع أن يدعى أن الإنسان فى حل مشكلاته اعتماداً على أسلوب المحاولة والخطأ، لا يفكر فى الخروج من المتاهات التى تعترض سبيل حياته، ولا يفكر فى حل المعضلات التى تحول دون تحقيق أهدافه.

وبعيداً عن الجدل حول هذه القضية المهمة والخطيرة، نقول - بدرجة كبيرة من الثقة - أن التفكير إنسانى النزعة، وأن التفكير الصحيح له علاقة وثيقة للصلة ببعض الصفات الإنسانية، مثل: العبقرية، والإبداع، والمنطق، والقدرة على التواصل والاكتشاف، وغير ذلك من الصفات النبيلة.

وبعامة، يتميز الإنسان بقدرته على التفكير، الذى يساعده على استنباط الأحكام وتحديد الرؤى المستقبلية للأحداث المتوقعة. ويبدأ الفرد التفكير فى موضوع بعينه عندما لا يعرف بالتحديد أبعاد وتفصيلات ذلك الموضوع الذى يمثل محور اهتمامه، أيضا يفكر الإنسان فى قضية بعينها للوقوف على ما يجب عليه عمله لمقابلة تحدياتها. وعليه، يمكن القول - مجازاً - أن التفكير هو سلسلة من النشاطات العقلية التى يقوم بها الإنسان الواعى، عن طريق تفعيل وتشغيل آلياته الذهنية والعقلية لتجاوز موقف صعب، أو لحل مشكلة ملحة، أو لتحديد رؤى مستقبلية لبعض الأمور، مع مراعاة إن الإنسان قد يفكر لنفسه بالنسبة لما يخصه، أو يفكر للآخرين لمساعدتهم فى تجاوز المعضلات التى تصادفهم، أو يفكر فى حل المشكلات التى يموج بها المجتمع من خلال عمله فى الهيئة أو المؤسسة أو المركز الذى يعمل فيه. وفى جميع الأحوال، عندما يفكر الإنسان، فإن النشاطات التى يقوم بها دماغه هى نشاطات غير مرئية وغير ملموسة، ولكن يستدل على نتائجها ومردوداتها من خلال تحقيق أهدافها الصريحة والخفية.

التفكير - إذاً - عملية يقوم الإنسان عن طريقها بمعالجة عقلية للمدخلات الحسية والمعلومات المسترجعة لتكوين الأفكار أو استدلالها أو الحكم عليها أو الربط بين معانيها ودلالاتها، وهو عملية مجردة لا يمكن تلمسها وتصويرها، ولكن يمكن تتبع مساراتها غير المرئية من خلال ما يتحقق من نتائج ملموسة أو مجردة.

أولاً : المقصود بالتفكير وخصائصه ومهاراته :

من منطلق أن الإنسان عندما يفكر، فإنه يستخدم مدركاته وخبراته السابقة وحده، وقدرته على تقديم معالجات واعية وذكية للمعضلات التى يجب عليه حلها وتجاوزها، يمكن القول بأن التفكير يعكس قوة وسلوك الإنسان العقلى وتوقده الذهنى لوضع النقاط فوق الحروف بالنسبة لكل صغيرة وكبيرة فيما يخصه شخصياً وفيما يخص الآخرين الذين يجب أن يتعامل معهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وغير ذلك يعنى الفوضى، واختلاط الأوراق، وعدم القدرة على وضع حدود فاصلة بين الأشياء.

(١) التفكير :

يرتبط تفكير الإنسان فى سنواته الأولى بنموه العقلى ونضجه الجسمى، وعندما يتجاوز مرحلة المراهقة ويبدأ مرحلة الشباب فإن تفكيره يرتبط بحجم وكثافة الخبرات التى مر بها، سواء أكانت علمية أم اجتماعية أم حياتية أم بيئية أم اقتصادية أم سياسية

... إلخ. وعليه، يرتبط تفكير الإنسان بمدى قدرته على إصدار أحكام صحيحة، وعلى اتخاذ قرارات صائبة، وعلى التعامل بموضوعية وحسم مع القضايا المادية والمعنوية، ولذلك يدل تفكير الإنسان على ما يدور في ذهنه من عمليات وتصورات ورؤى بالنسبة للأشياء التي يجب عليه أن يقدم لها محاكمة عقلية عادلة لاستنتاج دلالات موضوعية وأفكار منطقية وتبريرات صادقة.

ويمكن نعت التفكير بالفاعلية إذا اهتم الإنسان بما يفكر فيه، وإذا ركز عليه وانتبه إليه، إذ دون الاهتمام والتركيز والانتباه يمكن للتفكير أن يتحول بسهولة إلى مجرد أحلام يقظة أو أمنيات مأمولة، في أشياء قد لا تتحقق أبداً. وأيضاً، يعتمد التفكير الفاعل على إبداعات الإنسان، وقدرته على المفاضلة والاختيار والنقد، وعلى بعد نظره ورؤيته الثاقبة وإمكانية قراءة ما بين السطور والربط والاستنتاج والتحليل والتعليل.

إذا امتلك الإنسان الآليات السابقة، يكون مفكراً، قادراً على الحكم واتخاذ القرارات، وبذلك يمكن وصف تفكير الإنسان في هذه الحالة بأنه التفكير الذي يصل به إلى أفكار نافعة ونتائج مهمة، وإلى رؤى معاصرة وصياغات حديثة لحلول المشكلات القديمة.

ونظراً لصعوبة وضع تعريف قاطع جامع مانع للتفكير، لارتباطه بكل شئ في الحياة، وذلك على مستوى الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة للأحداث أياً كانت طبيعتها وهويتها وظروفها وتداعياتها وتجلياتها، فإننا نقول بشئ من التحفظ بأن التفكير هو: قدرة الإنسان على اتخاذ قرار معين في ضوء خلفيته الثقافية، وأسلوب معرفته وأخلاقياته، وتصوره عن نفسه وعن الآخرين. أيضاً، يمكن أن نقول - مجازاً - أن التفكير هو: ممارسات عقلية داخلية يمارسها الإنسان، بحيث تعكس سلوكاً يتمم بنزعة إنسانية، تهتم بالحوار الذي يقوم على العقل والمنطق والبعد عن التعصب والإثارة، وأيضاً تعمل على توفير الأشياء التي تسهم في سعادة الإنسان، وتحقيق له رفاهيته وأمنه وسلامه، وتضمن له تحقيق مصالحه الحاضرة والمستقبلية على السواء، وتشعره بجمال البيئة من حوله بما يؤكد سمو إحساسه ونبل مشاعره.

وعلى صعيد آخر، من منطلق مقولة "أفلاطون": "حين يفكر العقل فإنما يتحدث إلى نفسه"، يمكن القول بأن التفكير: مدى وعي الإنسان وانتباهه للعمليات الذهنية التي تدور في مخه بالنسبة للأمور ذات الأهمية الخاصة بالنسبة له، وبذلك يقرر الإنسان على:

- تحديد ما يعرفه، وتحديد ما هو بحاجة إلى معرفته.
- وعى وإدراك بالبيانات والمعلومات غير المتوافرة لديه، لوضع الخطط الكفيلة بالحصول عليها.
- وضع خطة للعمل قبل المباشرة بالتنفيذ.
- تحديد خطوات متتابعة للعمل في قائمة، للوقوف على الخطوة التى تتحقق قبل الانتقال إلى خطوة أخرى جديدة.
- معرفة المسارات المغلقة التى لم تؤد إلى نتيجة، ووضع بدائل.
- اختبار صحة ما يتحقق للتأكد من أن النتائج صادقة، ولا تعود للصدفة أو أى عوامل أخرى خارجية عن نطاق العمل المرسوم والمحدد فى الخطة.

(٢) خصائص التفكير :

يعتمد مستوى التعقيد فى التفكير على صعوبة المهمة المطلوبة، وعلى مدى تجريد المثير . فالمهمة السهلة البسيطة، مثل: ذكر اسم الشخص، أو تذكر رقم هاتفه، يجيب عليها بصورة آلية وروتينية، دون أن يشعر بالحاجة إلى أى جهد عقلى يتطلب عمليات ذهنية معقدة . وبالنسبة للمهام الصعبة، فالأمر يختلف تماماً، إذ تتطلب السيطرة عليها وفك شفرتها أو حل أسرارها، عمليات ذهنية غاية فى الصعوبة والتركيب . وعليه، يمكن التمييز فى مجال التفكير بين مستويين، هما:

* التفكير الأساسى : Basic Thinking

ويتضمن مهارات عديدة، مثل: اكتساب المعرفة وتذكرها، الملاحظة والمقارنة والتصنيف، وإجابتها أمراً ضرورياً قبل الانتقال لمهارات التفكير المركب، إذ دون مهارات التفكير الأساسى يكون من الصعب السيطرة على مهارات التفكير المركب والتمكن منها .

* التفكير المركب : Complex Thinking

وتتمثل أهم خصائصه فى الآتى:

- لا تفرقه علاقة رياضية لوغارتمية (لا يمكن تحديد مسارات التفكير فيه بصورة وافية بمعزل عن عملية تحليل المشكلة) .
- يتضمن حلولاً مركبة أو متعددة .
- يصدر أحكاماً قاطعة ويعطى آراءً محددة .

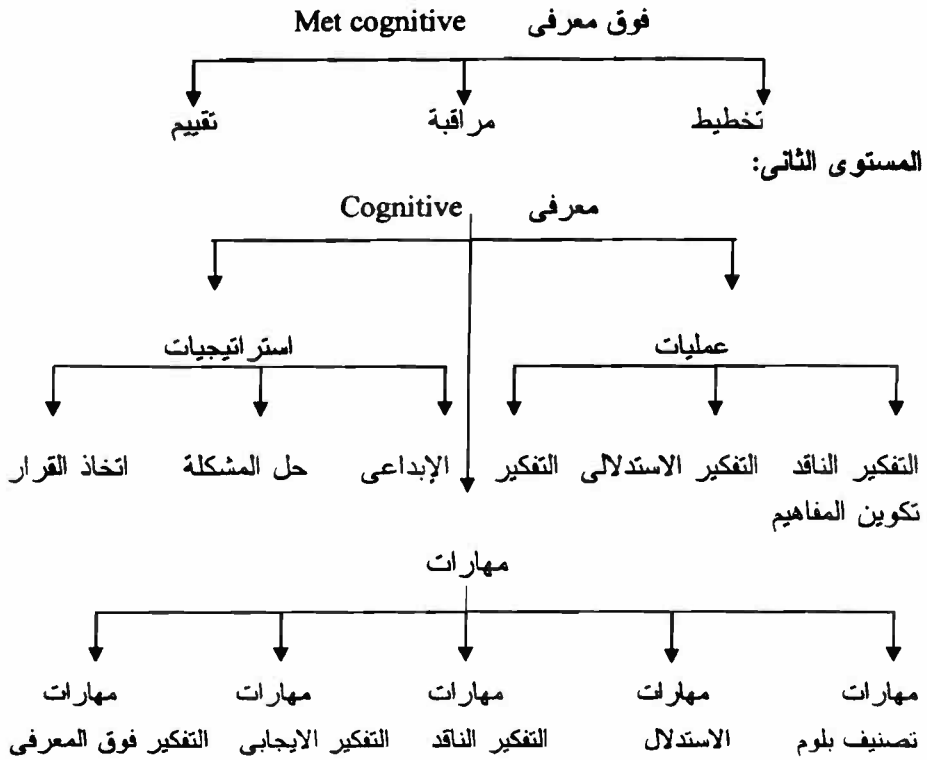
- يحتاج معايير أو محكات متعددة .

- يحتاج مجهوداً ذهنياً كبيراً .

- يؤسس للموقف معنى دقيقاً .

ويبين الرسم التخطيطي التالي مستويات التفكير ومكوناتها:

المستوى الأول:



شكل (١) مستويات التفكير

أما المرتكزات التي يجب مراعاتها في تصنيف مستويات التفكير، يتمثل أهمها

في الآتي:

- يتطور التفكير بتأثير العوامل البيئية والوراثية .

- تتطور العمليات العقلية والأبنية المعرفية بصورة منتظمة أو متسارعة، وتزداد

تعقيداً وتشابكاً مع التقدم في مستوى النضج والتعلم، وذلك يترتب عليه صعوبة في

نشاطات التفكير .

- من الصعب بمكانة تحقيق الكمال فى التفكير، لذلك فإن تحقيق حلول صحيحة لكل المشكلات بلا استثناء، لهو أمر غير ممكن.

ويمكن تصنيف التفكير من حيث الفاعلية إلى نوعين:

(أ) التفكير الفعال : Effective Thinking

وهو التفكير الذى يتحقق فيه الشرطان التاليان:

- * إتباع أساليب ومنهجية دقيقة.
 - * استخدام المعلومات الكافية والفاعلة المتوافرة.
- ويطلب استخدام التفكير الفعال تحقق القابليات والتوجهات الشخصية التالية:

- تحديد الموضوع أو المشكلة بوضوح.
- متابعة الاطلاع الجيد على تفاصيل موضوع التفكير.
- استخدام مصادر موثوقة للمعلومات.
- البحث عن البدائل والاهتمام بفحصها.
- البحث عن الأسباب وربطها بمسبباتها.
- مراجعة وجهات النظر المختلفة بتأن.
- الانفتاح على المستجدات والمستحدثات الفكرية.
- تعديل الموقف أو القرار عندما تستدعى الضرورة ذلك.
- إصدار الأحكام واتخاذ القرارات ذات العلاقة المباشرة بالأهداف والوقائع، دون التأثر بالمفاهيم الجامدة أو الرغبات الشخصية والعواطف.
- السلوك بموضوعية وعقلانية.
- المثابرة والإصرار على حل المشكلة.
- عدم اتخاذ القرار أو الحكم فى غياب الأدلة الكافية أو الاستدلال المناسب.

(ب) التفكير غير الفعال :

وهو التفكير الذى يتحقق فيه الشروط التالية:

- * لا يتبع منهجية علمية دقيقة.
- * يبنى على مغالطات أو افتراضات باطلة أو متناقضة.

- * يقوم على ادعاءات وحجج غير متصلة بموضوع التفكير .
 - * يتوصل إلى استنتاجات غير مبررة، ويعطى تعميمات وأحكام متسرة .
 - * يبسط الأمور المركبة بشكل يخل بالمضمون والمحتوى .
 - * يترك الحكم على الأمور ومعالجة الحوادث على الزمن .
- أما الممارسات والسلوكيات غير الصحيحة التي ترتبط بالتفكير غير الفعال، فيتمثل أهمها في الآتي:

- التضييل في عرض تفاصيل الموضوع، وتوجيه النقاش بعيداً عنه .
 - القوة والتهجم من أجل إجهاض أى فكرة أو رأى مخالف .
 - استخدام اللغة بما يخل بالمعنى والمضمون .
 - التردد في اتخاذ القرارات المناسبة التي تتوافق مع الأدلة الصحيحة المتاحة .
 - حسم المواقف على أساس خيار واحد فقط، رغم وجود عدة خيارات .
 - وضع فرضيات مغلوطة أو تخالف الواقع أو مبالغ بها .
 - التبسيط الزائد للمشكلات المعقدة .
 - الاعتماد على المأثورات، دون اعتبار لخصوصيات الموقف .
- (٣) مهارات التفكير :

يمكن التمييز بين النمطين التاليين من مهارات التفكير:

(أ) مهارات التفكير المعرفية :

- حددت الجمعية الأمريكية لتطوير المناهج والتعليم عشرين مهارة تفكير أساسية يمكن تعليمها وتعزيزها في المدرسة . وتشتمل القائمة على المهارات الآتية:
- * مهارات التركيز :
 - تعريف المشكلات Defining Problems أو توضيح ظروف المشكلة .
 - وضع الأهداف Setting Goals لتحديد التوجهات والأهداف .
 - * مهارات جمع المعلومات :
 - الملاحظة Observing: الحصول على المعلومات عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس .

- التماؤل Questioning: البحث عن معلومات جديدة عن طريق تكوين وإثارة الأسئلة.

* مهارات التذكر :

- الترميز Encoding: ترميز وتخزين المعلومات في الذاكرة طويلة الأمد.

- الاستدعاء Recalling: استرجاع المعلومات من الذاكرة طويلة الأمد.

ومما يذكر يعرف الباحثان جلجار وكورترايت (Gallagher & Courtright, 1986) الذاكرة على أنها تقوم بأداء وظيفتين رئيسيتين هما:

- اختزان المعلومات والخبرات الشعورية واللاشعورية وحفظها على شكل نظام معقد، يسمح بالبحث والتقيب عن هذه المعلومات والخبرات من أجل إيجاد استجابات للأسئلة المطروحة.

- استدعاء ما يلزم من المعلومات والحقائق ومنظومات البيانات عند الحاجة. ويتم اختزان المعلومات والخبرات في مستويين: قصير الأمد وطويل الأمد. ويتفاوت الأفراد في قدراتهم على تخزين المعلومات واستدعائها، وهناك علاقة إيجابية بين قوة الذاكرة ومستوى الذكاء، كما أن هناك تفاوتاً في قوة الذاكرة بين مجال وآخر لدى الفرد نفسه؛ فقد تكون لديه ذاكرة قوية في الخبرات اللغوية أو الرياضية، وذاكرة ضعيفة في الخبرات الموسيقية أو الفنية.

ومن المهم التنويه إلى أن بلوم قد وضع الذاكرة في المستوى الأول من تصنيفه للأهداف التربوية، وعليه، فإنها تعد بمثابة حجر الزاوية بالنسبة لباقي الأهداف التربوية العليا كالتحليل والتركيب والتقويم.

* مهارات تنظيم المعلومات :

- المقارنة Comparing: ملاحظة أوجه الشبه والاختلاف بين شيئين أو أكثر.

- التصنيف Classifying: وضع الأشياء في مجموعات وفق خصائص مشتركة.

- الترتيب Ordering: وضع الأشياء أو المفردات في منظومة أو سياق وفق محك معين.

* مهارات التحليل :

- تحديد الخصائص والمكونات Identifying Attributes and Components: التمييز بين الأشياء والتعرف على خصائصها وأجزائها.

- تحديد العلاقات والأنماط Identifying Relationship and Patterns: التعرف على الطرائق الرابطة بين المكونات.
- * المهارات الإنتاجية / التوليدية :
- الاستنتاج Inferring: التفكير فيما هو أبعد من المعلومات المتوافرة لسد الثغرات فيها.
- التنبؤ Predicting: استخدام المعرفة المسابقة لإضافة معنى للمعلومات الجديدة وربطها بالأبنية المعرفية القائمة.
- الإسهاب Elaborating: تطوير الأفكار الأساسية والمعلومات المعطاة وإغناؤها بتفصيلات مهمة وإضافات قد تؤدي إلى نتائج جديدة.
- التمثيل Representing: إضافة معنى جديد للمعلومات بتغيير صورتها (تمثيلها برموز أو مخططات أو رسوم بيانية).
- * مهارات التكامل والدمج :
- التلخيص Summarizing: تقصير الموضوع وتجريده من غير الأفكار الرئيسة بطريقة فعالة وعملية.
- إعادة البناء Restructuring: تعديل الأبنية المعرفية لاندماج معلومات جديدة.
- * مهارات التقويم :
- وضع محكات Establishing Criteria: اتخاذ معايير لإصدار الأحكام والقرارات.
- الإثبات Verifying: تقديم البرهان على صحة أو دقة الادعاءات.
- الاستدلالات المنطقية، وما يتصل بالموقف أو الموضوع من معلومات، والتفريق بين الآراء والحقائق.
- (ب) مهارات التفكير فوق المعرفية :

إن مهارات التفكير فوق المعرفية تنمو ببطء بدءاً من سن الخامسة، ثم تتحول بشكل ملموس في سن الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة، وقد أمكن تحديد عدد لا بأس به من هذه المهارات وقياسه، وأظهرت الدراسات أن المفكرين والخبراء في حل المشكلات والقارئ الجيد يتصفون بأنهم يمتلكون سيطرة وقدرة على التحكم في تفكيرهم وتوجيهه، كما أنهم يعرفون حدودهم، ويميزون بين ما يعرفونه وبين ما لا يعرفونه. إنهم يعرفون هدفهم وكيف يصلون إليه عندما يفكرون في حل المشكلة. كما أثبتت

الدراسات فاعلية بعض البرامج التعليمية لمهارات التفكير فوق المعرفية فى تحسن مستوى وعى الطلبة لقدراتهم وكيفية استخدامها ومتى تستخدم، وأظهرت حدوث تحسن فى مستوى الاستدلال التمثيلى Analogical Reasoning ومستوى الاستيعاب القرائى والشفوى.

وقد توصلت الدراسات التى أجريت منذ بداية السبعينيات من القرن العشرين حول مفهوم عمليات التفكير فوق المعرفية إلى تحديد عدد من المهارات العليا، التى تقوم بإدارة نشاطات التفكير وتوجيهها عندما ينشغل الفرد فى موقف حل المشكلة أو اتخاذ القرار، وقد صنف ستيرنبرج هذه المهارات فى ثلاث فئات رئيسة، هى: التخطيط والمراقبة والتقييم، وتضم كل فئة من هذه الفئات عددا من المهارات الفرعية يمكن تلخيصها فيما يلى:

*** التخطيط Planning:**

- تحديد الهدف أو الإحساس بوجود مشكلة وتحديد طبيعتها.
- اختيار استراتيجية التنفيذ ومهارات تحقيقها.
- ترتيب تسلسل العمليات أو الخطوات.
- تحديد العقبات والأخطاء المحتملة.
- تحديد أساليب مواجهة الصعوبات والأخطاء.
- التنبؤ بالنتائج المرجوة أو المتوقعة.

*** المراقبة والتحكم Monitoring & Controlling:**

- الإبقاء على الهدف فى بؤرة الاهتمام.
- الحفاظ على تسلسل العمليات أو الخطوات.
- معرفة متى يتحقق هدف فرعى.
- معرفة متى يجب الانتقال إلى العملية التالية.
- اختيار العملية الملائمة التى تتبع فى السياق.
- اكتشاف العقبات والأخطاء.
- معرفة كيفية التغلب على العقبات والتخلص من الأخطاء.

*** التقييم Assessment:**

- تقييم مدى تحقق الهدف .

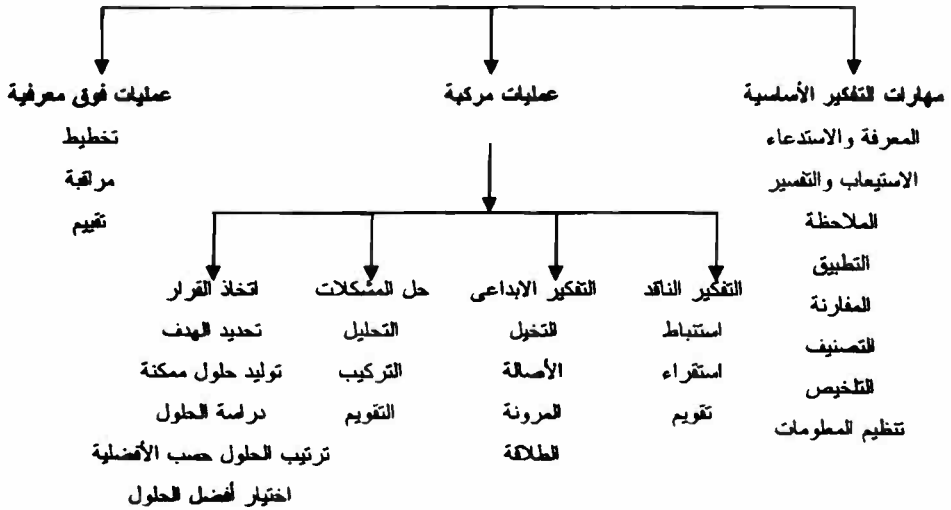
- الحكم على دقة النتائج وكفائتها .

- تقييم مدى ملائمة الأساليب التي استخدمت .

- تقييم كيفية تناول العقبات والأخطاء .

- تقييم فاعلية الخطة وأساليب تنفيذها .

ولتوضيح العلاقة بين مكونات التفكير وما يتفرع عنها من مهارات يمكن استخدام النموذج التربوي الذي يوضحه الشكل التالي من قبل المربين والمعلمين لأغراض تعليم التفكير وتعليم مهارات التفكير . وكما يلاحظ في الشكل، أدرجت بعض مستويات تصنيف بلوم Bloom للأهداف التربوية ضمن مهارات التفكير الأساسية، وهي: المعرفة والاستدعاء، والاستيعاب والتطبيق، بينما أدرج البعض الآخر ضمن مهارات عملية حل المشكلات أو التفكير الناقد . وهي: التحليل والتركيب والتقييم .



شكل (٢) : نموذج تفصيلي لعمليات التفكير ومهاراته

على أنه يجب أن لا يفهم من هذا أن مهارات واستراتيجيات التفكير هي وظائف يمكن فصلها أو عزلها عن بعضها البعض بهذه البساطة . فمثلاً: تحتاج ممارسة

التفكير النقدي إلى استخدام بعض مهارات التفكير الإبداعي أو حل المشكلة والعكس .
وهناك من يرى أن التفكير الناقد هو الإطار الذى يضم جميع الأنماط الأخرى من
التفكير، بينما يرى آخرون أن حل المشكلة أو اتخاذ القرار هو المظلة التى تدرج
تحتها جميع العمليات العقلية المعقدة .

ثانيا : التفكير والفهم :

من الطبيعى أن يتمعن الإنسان فيما يراه، وفيما يسمعه، وفيما يحدث حوله،
وأىضا فى المشكلات والمعضلات التى يقابلها، وفى القضايا المفروضة عليه التى ترتبط
بالحاضر والمستقبل على السواء . فإذا أصدر الإنسان أحكاماً صحيحة ودقيقة وتسم
بالموضوعية والعقلانية، نقول أنه يهتدى إلى ما يفعله فى الحاضر، أو ما سوف يفعله
فى المستقبل . ويتم وصف تفكير هذا الإنسان بالحكمة والروية والفطنة وبعد النظر
والذكاء، وغير ذلك من الصفات النبيلة الرائعة .

والحقيقة، إن ما يميز إنسانا عن آخر، هو قدرته على إصدار الأحكام
الصحيحة البناءة والمفيدة، فعلى الرغم من أن جميع الأفراد العاديين يفكرون، فإن
بعضهم فقط يستطيعون النقاط الصورة فى أذهانهم، وتفعيل أفكارهم فى أحداثها،
وإصدار الحكم السليم والدقيق على مضمونها .

وعليه، التفكير هو ما يحدث فى الفاصل الزمنى بين ما يراه الإنسان، وما
يهتدى إلى ما سيفعله تجاهه، حيث تتتابع الأفكار خلال هذا الفاصل، فى محاولة
لتحويل موقف جديد وغريب إلى موقف مألوف سبق للإنسان التعامل معه واعتاد
عليه . وقد يتعلم المرء هواية اللعب بالأفكار من قبيل التسلية، ورغم ذلك، فإن الهدف
البيولوجى الرئيس من التفكير هو تمكين الكائن الحى من الاقتراب مما يفيد بقاءه
والابتعاد عن المخاطر . إذن، التفكير بيولوجياً هو أن يعرف الكائن المفكر ما عليه
عمله: هل يقترب طمعا لم يهرب خوفاً؟

ولكن القضية لا يقتصر مضمونها على الناحية البيولوجية، إذ أنها أعمق
وأشمل من ذلك بكثير، لأنها تتضمن تفاعلات وتعاملات تمتد فى شتى المناحى
والاتجاهات، لذلك توجد ثلاث عمليات أساسية تتيح للكائن الحى الإلمام بقدر كاف من
المعرفة التى تساعد على التصرف السليم فى كل المواقف، وهى الغريزة والتعلم
والفهم .

(١) الغريزة :

وهى رد فعل فطرى يحدد تلقائيا التصرف المناسب فى الموقف القائم . وهو رد فعل تمليه تركيبة الكائن . وهو مباشر وثابت وتلقائى تماما مثلما يضىئ المصباح إذا ضغطت على الزر ، فكما تملئ توصيلات ومفاتيح الكهرباء استجابة المصباح ، تملئ تركيبة الكائن استجابة الغريزة . فالحيوانات ترد بشكل غريزى حتى على مواقف لم تصادفها من قبل .

وتتميز الاستجابة الغريزية بالآتى:

- الاستجابة بالغريزة هى استجابة فورية وجاهزة ولا تحتاج أى تعلم .
- الاستجابة الغريزية يمكن توقعها دائما ، ومفهومها ثابت لا يتغير ، مما يجعلها ذات فائدة فى التواصل بين الكائنات .
- أما عيوب الاستجابة للغريزية ، فهى:
- الاستجابة الغريزية ثابتة لا يمكن تعديلها لملاءمة المواقف الجديدة ولا يمكن كبجها إن كانت غير ملائمة .
- لأن عدد الاستجابات الغريزية ثابت ومحدود ، فلا يمكن إضافة استجابات غريزية جديدة لملاءمة مواقف جديدة .

(٢) التعلم :

وفى هذا الشأن يمكن التمييز بين نمطين من أنماط التعلم ، هما:

(أ) التعلم بالاحتكاك المباشر :

وتلك عملية بطيئة من التلمس والمحاولة والخطأ تهتدى بها الكائنات الحية إلى ردود الأفعال الملائمة .

فى هذه الحالة ، يتضمن التعلم الإتيان بتصرف ما تجاه موقف محدد ثم ملاحظة ما يحدث ، فقد تكون نتيجة هذا التصرف ملائمة أو غير ملائمة أو عديمة الجدوى . وبالتدريج يتعلم المرء ردود الأفعال التى توفر له المتعة وتبعده عن الألم . وبعد أن يتشكل رد الفعل فإنه يتكرر فى المواقف المتشابهة ، ويصبح هذا الأسلوب المكتسب مماثلا للاستجابة الغريزية .

ويتميز التعلم بالاحتكاك المباشر بالآتى:

- إمكانية اكتساب خبرات جديدة لتلائم المواقف المستجدة .

* يمكن تعديل رد الفعل لينطبق تماما مع متطلبات الموقف، كما يمكن تحسين ردود الأفعال الرديئة أو الكف عنها.

أما عيوب هذا النمط من التعلم، فهي:

* التعلم بالمحاولة والخطأ أسلوب بطيء، لا سيما فيما يتعلق بالنتائج المرتقبة على المدى الطويل، حيث لا تأتي النتيجة إلا بعد تتابع طويل من ردود الأفعال (فلا يمكن للمرء أن يعرف في التو أن كان على طريق الصواب أم لا).

* التعلم بالاحتكاك المباشر قد يكون محفوفًا بالمخاطر، كأن يلجأ الناس إلى البحث عن مصادر التيار الكهربائي بوضع أصابعهم فيها.

(ب) التعلم بالتلقين والمحاكاة :

وهذا نوع من الغريزة الاصطناعية، فهو يتضمن اكتساب خبرة تتيح الإتيان بردود أفعال فورية لمواقف جديدة، دون التورط في المحاولة والخطأ. وتستمد هذه الخبرة من الكتب والتلفزيون والمدرسة والأبوين وسائر البشر وغير ذلك. فبهذا الأسلوب يتعلم الطفل الابتعاد عن طريق السيارات دون أن يخوض التجربة. ويتعلم طالب الطب أن فيثامين ب ١٢ قد يشفى نوعا معينا من الأنيميا من خلال القراءة في المراجع الطبية، وقد يعرف مستثمر أن نوعا من المضاربة يحمل مجازفة ما لأن أحد خبراء البورصة أخبره بهذا؛ فيدرك بذلك خسارة كان من الممكن أن يتعرض لها.

وتتمثل مزايا التعلم بالتلقين والمحاكاة في الآتي:

- * أسرع وأكثر أمانا من التعلم بالاحتكاك المباشر.
- * يمكن سبق الأحداث بإعداد ردود أفعال جاهزة لمواقف متوقعة في المستقبل.
- * يمكن فهم مواقف قد لا تحدث للفرد أبدا (مثل دراسة تضاريس سطح القمر).
- * يتيح هذا الأسلوب اختزان المعلومات والمعارف ونقلها وتداولها وهكذا تنمو حصيلة الإنسان وتزداد يوما بعد يوم.
- * أن عددا كبيرا من العقول (بعضها أفضل كثيرا من عقل المتعلم المستفيد) قد تجتمع على دراسة موقف معين فتخرج برد فعل أفضل بكثير مما يمكن أن يصل إليه عقل منفرد.

أما عيوب هذا النمط من التعلم، فهي:

- يعتمد الفرد تماما على ثقته في المصدر الذي يتعلم منه لأنه لا يواجه الموقف بنفسه؛ وإنما من خلال عيني الشخص الذي يتعلم منه ومن خلال أفكاره المخترنة.
- أن ردود الأفعال التي يتعلمها الفرد من الغير تتسم بنوع من الوسطية بما يجعلها تلائم كل الناس؛ بدلا من أن تكون محددة بدقة لتناسب فكر الشخص ذاته.
- يمكن بكل سهولة أن تكون ردود الأفعال التي يتعلمها الفرد من مصادر مختلفة كالآباء والمدرسين والأقارب متضاربة، وذلك قد يؤدي إلى نوع من الارتباك والصراع الداخلي.
- بما أن الثواب أو العقاب لا يأتي على النحو المباشر مثل حالة الخبرة للشخصية، فإن الدافع للتعلم يكون أقل والانتباه يتشتت.

(٣) الفهم :

إن رد الفعل الغريزي هو استجابة ملائمة لموقف معين . وتعد أيضا ردود الأفعال الناجمة عن التعلم سواء المباشر أو غير المباشر، تصرفات ثلاثم مواقف محددة، وهي تلك المواقف المألوفة التي اعتدنا التعامل معها . ولكن ماذا عن المواقف الجديدة؟ ماذا عن تلك المواقف غير المعتادة التي ليست لدينا إجابات جاهزة لها؟ هنا تظهر أهمية وقيمة الفهم، إذ عن طريقه يستطيع الفرد تحويل موقف غير مألوف إلى موقف معتاد يعرف كيف يتصرف فيه . ويتم هذه العملية في العقل بأن ينتقل من فكرة إلى أخرى، حتى ينتهي إلى رؤية الموقف المستجد شبيها أو منحصرًا من مواقف أخرى معتادة . وهذا الانتقال من فكرة لأخرى هو التفكير، أي أن الفهم هو التفكير .

إذا الفهم هو تحويل المجهول إلى معلوم من خلال التفكير . وربما كان من قبيل أن يتعرف المرء على طبيعة شيء ما أو على الطريقة التي يحصل بها على تأثير ما . وما عملية البحث والتعرف هذه إلا التفكير .

خلاصة القول: الفهم هو التفكير .

ويعد الفهم عملية بالغة الفائدة، لأنه يمكن الإنسان من مضاعفة معارفه، فليس عليه إلا أن يتعلم بضعة تصرفات إزاء مواقف معتادة ويتعامل معها على الفور (ودون الحاجة إلى التفكير في رد فعل سواء بالخبرة المباشرة أو بالاستعانة بخبرة الغير) .

ويتميز الفهم بالآتى:

- * يسمح الفهم للإنسان بمضاعفة ما تعلمه باستخدام ردود الأفعال القديمة فى مواجهة مواقف جديدة.
- * يتيح الفهم للإنسان شرح وتفسير المواقف الجديدة للآخرين، بما يمكنهم من اختيار استجاباتهم الخاصة بدلا من أن يضطروا للاستعانة - بشكل عشوائى - بردود أفعال جاهزة من غيرهم.
- أما العيوب التى تترتب على صعوبة الفهم، فهى:
- * أن محدودية عدد الاستجابات (أو الأفكار) المكونة سلفا تحد إمكانية فهم المواقف الجديدة.
- * أثناء محاولة فهم موقف جديد غريب من خلال الأفكار القديمة، قد يهمل المرء جزء من التفاصيل أو يحرف الموقف بحيث يجعله ملائما لرصيده من الأفكار.
- * عادة يمكن فهم المواقف غير المألوفة بعدة طرائق، ولكن غالبا ما يأخذ المرء بأول بديل يظهر منها ويقنع بأن هذه هى الطريقة الوحيدة لرؤية الموقف.
- * أن الناس على اختلاف أفكارهم يتصرفون إزاء موقف واحد كل بطريقته، ويتصرف كل إنسان تبعا لرؤيته الذاتية.

ثالثا : التفكير فى الحياة العملية المعاصرة :

فى الحياة العملية المعاصرة يستخدم الإنسان فكره الفطرى كثيرا، ولذلك فهو يعتمد أغلب الوقت على التعلم بالطريقة غير المباشرة (التلقين والمحاكاة) وعلى الفهم. وتأتى أفكاره ومعارفه الأساسية مما يتلقاه من تعليم نظامى أو مما يختاره ويهتم به أو يتعلمه بالصدفة، ثم يستخدم الفهم فى تحليل المواقف الجديدة غير المعتادة وردها إلى ما يعرفه ليطبق معارفه الأساسية عليها.

ويقوم الإنسان بمحاولة فهم الأشياء من أجل تحقيق الآتى:

- * التصرف بالطريقة الملائمة والحكيمة تبعا للموقف.
- * الحصول على نتائج دقيقة ومفيدة.
- * توقع ما قد يحدث فى المستقبل.
- * حب الاستطلاع، وخاصة بالنسبة للأمور الغامضة.

- ويقتضى التفكير فى مشكلات الحياة العملية المعاصرة لإيجاد الحلول المناسبة لها، دعامات قوية تسند وتساند التفكير، من أهمها الآتى:
- وجود معلومات كافية عن الجوانب المختلفة لأية مشكلة.
 - وجود فرصة لجمع المعلومات اللازمة عن المشكلة.
 - توافر مجال لاستخدام أسلوب المحاولة والخطأ.
 - توافر طريقة للتأكد من صحة فكرة أو خطئها.
 - انفتاح الموقف أمام المرء بحيث يمكنه أن يبرهن كيفما يشاء على صواب رأيه.
 - وجود عدة تفسيرات للموقف.
 - تعامل المرء مع أفكار غير محددة وليس مع أعداد يمكن وضعها فى معادلات أو نماذج رياضية.
 - عدم النظر إلى المسألة وكأنها اختبار لصحة الأفكار، بل أن نفكر فيها أولاً.
 - كفاية المعلومات والمصادر التى تسهم فى الخروج بنتيجة نهائية قاطعة.
 - وجود الكوادر البشرية من الثقة الذين يمكن الرجوع إليهم لسؤالهم أو استشارتهم.
- وننوه هنا أن الفرد عندما يستجيب بعبارته: "لا يهمنى الأمر"، تعد هذه إجابة سلبية لأنه ليس هنا ما يفرض على إنسان فهم شيء ما. فإن كان لا يهم الإنسان فهم شيء ما، فعليه أن يستعير تفسيراً ما من إنسان غيره أو أن يحيا دون فهم هذا الشيء.
- وجدير بالذكر أن المهم التفكير وليس مضمون ما يفكر فيه الإنسان، ولذلك عند النظر فى موضوع التفكير تكمن - عادة - الصعوبة فى الفصل بين عملية التفكير ذاتها والشيء الذى يدور حوله التفكير. والحقيقة أن التفكير هو التفكير، وقد لا تختلف العمليات التى تدور فى الذهن بين عالم نرة يفكر فى الجسيمات النووية وربة بيت تفكر فى سعر اللحم. إن عمليات التفكير تملئها طبيعة تركيب العقل، ولا يوجد مفتاح يديره المرء فيحول طريقته فى التفكير إذا انتقل من سفاسف الأمور وصغائرها إلى أعظمها.
- وفى كل إنسان عقل يعمل بالطريقة نفسها التى يعمل بها مثيله لدى إنسان آخر. فلن يختلف المسلك الفكرى لمن يشارك فى تجربة سهلة بسيطة عنه إذا تعامل صاحبه مع الأمور السياسية الصعبة أو الاقتصادية المتقدمة.

وعلى صعيد آخر، لقد يواجه المشاركون فى حل المشكلات المعاصرة ظروفًا صعبة، إذا لم تتوافر لديهم معلومات كافية، ولا الوقت للتفكير فى أبعاد المشكلات المطلوب حلها، لذلك لا يحققون نتائج إيجابية حاسمة، ولكن لو توافر الوقت والمعلومات الكافية، لجرت عمليات تحليل وتمحيص دقيقة حتى تتضح الأمور؛ ومن ثم لخرج الناس بتفسيرات أفضل. ولو حدث أن كانت ردود الأفعال والتفسيرات واضحة لصعب الخروج بشيء ذى بال عن العمليات التى دارت فى العقل بشأنها.

والمدعش فى الأمر، أن بناء يتم على عجل تظهر عيوبه والشقوق والميول التى فيه فتكشف الطريقة التى بنى بها وعيوبها، أما البناء الذى يشيد على مهل وإتقان فلا يكاد يحدثنا بشيء عن الطريقة التى بنى بها.

إن أعظم فائدة لنتائج التفكير فى مشكلات الحياة المعاصرة هى أنها توفر إطاراً يتيح تحديد الملامح الأساسية للتفكير:

- طرائق الفهم.

- طرائق الصواب.

- طرائق الخطأ.

علاوة على أهمية بعض الأشياء، مثل: روح الفكاهة والإبداع والخيال والانتباه. وتشكل هذه العناصر مكونات التفكير العادى. وإذا عرف المرء كيف ينظر إلى هذه الجوانب بطريقة موضوعية، فسيتمكن عمل شيء ما تجاهها.

(١) طرائق الفهم :

تتطلب إجابة السؤال: كيف يمكن للفرد تفسير حدث ما يستعصى عليه فهمه؟

وجود خمسة مستويات لتفسير وفهم الأشياء:

(أ) الوصف البسيط :

الوصف هو أبسط مستوى للفهم، وهو يتمثل فى أن يصف الفرد ببساطة ما حدث أمامه. ولا يوجد ما دون الوصف البسيط إلا الصمت.

قد يبدو للوهلة الأولى أنه لا يعنى شيئاً على الإطلاق، ولكنه فى الحقيقة يخبرنا بالكثير، فهو يشكل تفسيرات حقيقية للمواقف، لأنه يربط صاحبه بوجهة نظر محددة. وإذا أراد الفرد أن يفهم ما نقول به هذه الأوصاف فلا يهتم بما تشتمل عليه، بل عليه أن يركز على ما لم يرد ذكره فيها.

ومما يذكر أن الفرد ما دام قد قال وصفا ما، فإن هناك لا محالة مفاداً لهذا الوصف. وقد لا يكون في حسابان صاحب الوصف البسيط أن يستبعد كل الاحتمالات التي لم يرد ذكرها في وصفه، ولكن بمجرد اختياره للوصف، قد يكون قد حصر بشكل ما التفسير. إن أى وصف لا يشتمل على كل الاحتمالات يفرض التقيد بما لم يتضمنه منها. وعملياً، لا يوجد وصف يشتمل على كل الاحتمالات، وهذا ببساطة لأن الشخص الذى يقدم الوصف لا يصف الموقف فى ذاته، وإنما يصف الطريقة التى يراه بها.

ويمكن لصاحب الوصف البسيط أن يدع المجال مفتوحاً لمزيد من الاحتمالات، وذلك بأن يظل على استعداد للرجوع إلى الموقف فى ذاته وإعادة وصفه بطريقة أخرى. ولكن بمجرد أن ينقل وصفه لشخص آخر (كما يفعل الصحفى بتقديم وصف ما للقراء) فإن المتلقى سيرتبط بوجهة النظر هذه؛ لأنه ليس مطلعاً على الموقف الحقيقى ليفحصه بنفسه.

(ب) الكلمات الهلامية :

تتحدث الكلمات الهلامية عن أفكار محددة ولكن عند فحص الأفكار نجد أنها بلا شكل واضح ولا معنى محدد لها. ومع ذلك، فهى تعبر عن أفكار حقيقية ونحن نتصرف تجاهها بطرائق حقيقة. إننا نستفيد من تأثير الكلمات الهلامية برغم خلوها من المعانى المحددة.

وكثيراً ما يسمع الناس فى المطارات تنبيهات عن تأخر إقلاع بعض الرحلات "لأسباب فنية". ولما كانت عبارة "أسباب فنية" تتأرجح بين تأخر وصول الطائرة وبين التهديد بوجود قنبلة عليها، فإن هذا التنبيه لا يفيد بشئ أكثر من القول بأن "الرحلة تأخرت لأنها تأخرت". ولكن لو جاء التنبيه على مثل هذا النحو، فسوف يثير سخرية الركاب وتمردهم.

إن الكلمات الهلامية كلمات بلا معنى، ومع ذلك فهى مفيدة جداً، إذ أنها أكثر تحديداً من الوصف البسيط (المستوى الأول)، فهى تحدد سبباً معيناً، ولذلك فإن استخدام الكلمات الهلامية ليس هو من قبيل الغش، ولا هو طريقة للإيحاء بمعرفة الكثير دون قول أى شئ فى حقيقة الأمر، بل إن استخدام الكلمات الهلامية يعتبر جزءاً مهماً جداً من التفكير الإنسانى، فالإنسان يتميز فى تفكيره على الحيوان بقدرته على استخدام الكلمات الهلامية الخالية من المعنى. والواقع أن عدم وجود معنى لهذه الكلمات هو سر

نفعها. وبعمامة يمكن للمرء البدء بوضع كلمة مبهمة ثم اللجوء بعد ذلك إلى التفكير ثم إنجاز شئ ما .

(ج) أعطها اسما :

فى المستوى الثالث للفهم، نلمس تحديدا وتسمية للعملية التى تدخلت فى صنع الحدث. وبدلا من كلمة هلامية مثل "آلية" نرى محاولة لوصف الآلية بـ "الله" أو "السحر" أو "الجاذبية" أو "الكهرباء"، ولكن دون وصف تفاصيل ما حدث بفعل هذه الآلية، ولا حاجة ضرورية لهذه التفاصيل .

وتعد تسمية الآلية هذه خطوة متقدمة جدا عن مجرد القول بأنها "آلة" أو "جهاز" بل ويمكن القول بأنها تفسير كامل للحدث، فبمجرد تسمية الآلية فإنك تعرف ما يمكنك عمله حيالها، وهذا بالتحديد هو ما يدفع أى إنسان لفهم شئ ما . فلو قلت بأن الآلية كانت هى السحر، فقد انتهيت إلى أنه لا شئ يمكنك عمله أو أنه لا بد من السعى بحثا عن سحر مضاد أقوى . وفى كلتا الحالتين سيرحك هذا الفهم من حيرة الاستمرار فى البحث عن تفسير .

والسحر هو قوة غامضة تصنع الأشياء، غير أن طريقة فعلها ما زالت غامضة . "والجاذبية" هى تسمية عصرية لقوة غامضة كالسحر، فنحن نعرف تأثيرات الجاذبية ولكننا لا نعرف كيف تعمل عملها .

وبمجرد أن تعرف اسم الآلية المعينة فى موقف غريب عليك، فإنك تفهم هذا الموقف فى الحال، ومن ثم تأتى بالتصرف الملائم، فعلى سبيل المثال يمكنك فورا أن تقطع التيار الكهربى عن آلة بدأت تدور بضوضاء مجنونة . وبمجرد تسمية كيفية حدوث شئ ما فى كلمة واحدة مثل: الشيوعية - الفاشية - الحكم البابوى - العنصرية - الامبريالية - المؤسسة - الحكومة - المتطرفين، فإنك تترك ما عليك عمله تجاه موقف ما، ويتوقف عند هذا الحد البحث عن مزيد من التفسير .

(د) كيف تجرى الأمور :

يمكن للمرء أن يفسر حدثا ما بأن يبين كيف أنه تلا مباشرة شيئا آخر سبقه تـوا . وتسمى الواقعة السابقة "السبب"، أما الحدث التالى، فهو "النتيجة" وليس التفكير بالأسباب والنتائج إلا عملية قطع لسلسلة من الأحداث عند نقطة ملائمة لأغراضنا، وتسمية ما حدث قبل هذه النقطة الزمنية بالأسباب وما بعدها بالنتائج .

ويبين المستوى الرابع من الفهم كيف أن حدثاً مرئياً يأتي فى الواقع نتيجة لحدث آخر غير مرئى . وهكذا يفسر المرء موقفاً غريباً عليه بأن يرجع بذاكرته عبر الأحداث حتى يعثر على حدث مألوف لديه .

وفى هذا المستوى لم نصل إلى شرح لتفاصيل ما حدث، وإنما نتناول وصفاً عاماً للطريقة التى وقع بها الحدث، ولكن لا نتحدث عن التفاصيل الدقيقة التى أنت إلى حدوثه. ويشبه هذا المستوى من التحليل القول بأن "النقاش صعد لطلاء السقف" دون أن نحدد الطريقة التى صعد بها، هل على سلم؟ أم وضع كرسيّاً فوق منضدة وصعد فوقها؟ . ويكاد هذا النهج يناقض ذلك الذى يقوم عليه المستوى الثالث والذى يسمى الطريقة التى وقع بها الحدث؛ ولكنه لا يذكر التفاصيل .

والسؤال : من سبق الآخر : اسم العملية أم طريقة حدوثها ؟!

وبوسع المرء فى المعتاد أن يبدأ بالتعرف على طريقة حدوث (أو عمل) شئ ما ثم ينتقل إلى تسمية هذه الطريقة . كما يمكن أن يسير التفكير فى الاتجاه المعاكس، أى يبدأ بمعرفة اسم آلية ما فيجد غالباً أن لديه فكرة عن كيفية أداء هذه الآلية . وكمثال، إذا تم تشخيص مرض كالدوسنتاريا، فسيتمجه التفكير إلى حدوث عدوى بكتيرية مسبقة وإلى فقد للسوائل من الجسم . كما يمكن أن يتسلسل التفكير فى الاتجاه المعاكس بالتعرف على الأعراض من علامات العدوى وفقد السوائل إلى تسمية المرض بـ "دوسنتاريا" .

ويتميز المستوى الثالث، وهو التسمية بأنه أسهل من المستوى الرابع الذى توصف فيه التفاصيل . فأن يرد الحدث إلى السحر لهو أيسر من ذكر التفاصيل التى يعمل بها هذا السحر . فالتسمية تتميز بأنها تحرر الفرد من التفكير فى الأسباب وتجعله يسعى إلى تصرف ما، ولكن قد تكون طريقة التسمية هذه عيباً لو أن الفرد اكتفى بتسمية الكيفية التى تحدث بها الأمور بدلاً من أن يبحث عن التفاصيل . فإن كانت التفاصيل تهم الفرد فعلاً فمن الأفضل أن يبدأ من المستوى الرابع، وأن يترك التسمية (المستوى الثالث) لتأتى لاحقاً .

خلال البحث عن تفاصيل حدث أو عمل شئ ما، فإننا نحاول إيجاد أسباب تفسر النتائج التى لاحظناها، ويشبه هذا التراجع إلى الخلف عبر الزمن محاولة للبرهنة على أن الحدث الذى يبدو غير مفهوم لنا، إنما جاء نتيجة حدث آخر مألوف لنا، وتلك

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكتشاف
أفضل طريقة لرؤية الموقف فى ظل مفهوم السبب والنتيجة، ولكن فى محاولة عزل
سبب محدد قد يفقد المرء بعض التفاصيل الضرورية .

(هـ) التفاصيل الكاملة :

إن المستوى الخامس هو أعلى مستويات التفصيل، وهو يشبه الرسم الهندسى
التفصيلى، حيث يُمكن متابعة التفاصيل لتكرار ما حدث، ونلاحظ أن أكثر الإجابات على
هذا المستوى يمكن وضعها فى صورة رسوم تخطيطية .

وتتسم بعض الرسوم بأنها على درجة من التعقيد، بينما ليس ضروريا أن تكون
الإجابة التفصيلية معقدة بعامه، قد تكون الآلية التى تم بها الأمر بسيطة أو معقدة،
والمهم أن التفسير على المستوى الخامس يغطيها كاملة .

ولكن : إلى أى مدى نتوغل فى التفاصيل ؟

من الجلى أن التوغل نحو التفاصيل الكاملة - بالمعنى المطلق - شئ مستحيل،
لأنه مهما طرحنا من تفاصيل فى سبيل الإجابة على سؤال بعينه، لا يمكن الزعم بأننا
قدمنا كل التفاصيل كاملة بشكل مطلق . وعمليا، يجب أن نتوقف عند الحد الذى يصبح
معه السؤال بـ "لماذا" أو "كيف" بلا معنى . عند هذا الحد يتحول الوضع غير المألوف
إلى وضع مألوف . والغريب فى الأمر، إذا تجاوز الفرد هذا الحد وخاض فى مزيد من
التفاصيل، فسيدخل مرة أخرى فى متاهات وضع آخر غير مألوف .

ومن المهم التنويه إلى أن المستوى الخامس يعد توليفة من المستويين الثالث
والرابع، حيث يصف التفسير كيفية حدوث الشئ، مع تعمقه فى تسمية كافة الدقائق
التي لعبت دورا فى الحدث . ولا يوجد مستوى أعلى من هذا فى درجة التفصيل .

ولا تقتصر المستويات الخمسة التى تم وصفها فى الحديث السابق على الفهم
فقط، بل تشمل أية صورة من التفكير أو الحوار أو المناقشة بشأن أى موضوع . وهكذا
يمكن أن يصف شخص "مظاهرة" مثلا فيروى ببساطة ما شاهده، ويأتى شخص آخر
فيتحدث عن "سيكولوجية التجمعات البشرية"، ويقول ثالث إن ما حدث كان نتيجة
لتحريض توجه سياسى مضاد، وقد يتناول شخص رابع خلفيات وبعض تفاصيل
الواقعة، وأخيرا، قد يحاول الخامس أن يغطى كل التفاصيل الممكنة عن الحدث . وتعد
تلك المستويات الخمسة ذاتها هى أساس أى قرار أو فعل .

إذا، خلاصة القول تتمثل فى:

- من المحال أن يقول المرء شيئا خاليا تماما من أى معنى .

- الشيء الوحيد الذى يجعل الإنسان يفكر بشكل أفضل من الحيوان، هو قدرته على استخدام الكلمات الهمالية التى لا تقول شيئاً محدداً.
- بمجرد التعرف على كيفية حدوث شئ ما، يمكن التعامل معه، وهذا بالتحديد هو الهدف الأول من التفكير.
- عملياً ينتهى البحث عن مزيد من التفاصيل عندما تنتهى جدوى التساؤل بـ "كيف" و "لماذا".
- إن تجاوز الفرد الحد فى البحث عن المزيد من التفاصيل، فإن الموقف يفقد وضوحه من جديد.

(٢) طرائق الصواب :

قلنا فى موقع سابق أن الفهم عملية أساسية من بين ثلاثة عمليات (الغريزة - التعلم - الفهم)، تساعد الفرد على التفكير الصحيح فى كل المواقف، إذ يسهم الفهم فى تحقيق التقدم نحو مستوى أعمق بشرط أن يكون الوقت كافياً للتفكير، وبشرط أن يحدد الفرد مستوى الكفاية الذى يريد تحقيقه. ولكن:

أى مستوى للفهم يختاره المرء؟ وهل يتعمق المرء إلى أقصى مدى له أم يتوقف بمجرد بلوغه المستوى الذى يسمح له بالتحرك والتصرف؟ أم على المرء أن يبدأ بالتعمق لأقصى ما يمكن ثم يعود للمستوى الملائم للموقف؟

قد يبدو للمرء أنه كلما تعمق فى التفاصيل كان ذلك أفضل، ويتفق ذلك مع التقاليد العلمية التى تقضى بضرورة تفسير الأمور على الوجه الأكمل كلما أمكن، فحتى بعد الوقوف على أدق التفاصيل فإن المرء يحاول التعمق أكثر وأكثر من خلال التجربة والملاحظة. ومسألة البحث عن أدق التفاصيل هذه لا تهدف - فى الواقع - الحصول على ما يكفى من المعلومات لتحديد نوعية التصرف، بل هى تعد غاية فى ذاتها.

ويتسم التحليل العلمى بكثرة البيانات وقلة العمل، بينما ينطبق العكس على التفكير الجارى فى الحياة اليومية، حيث يتمثل الهدف الرئيس له فى الحركة والعمل. وليست العبرة بتراكم المعلومات، ولكن بأن يصل الفرد إلى القدر الكافى من المعلومات ليعرف خطوته التالية.

وقد يختار باحث قضاء حياته كلها فى دراسة التركيب الوراثى لجناح حشرة، فمن طبيعة البحث العلمى أنه يركز على دائرة ضيقة جداً. أما فى الحياة اليومية، فعلى المرء أن يتعامل مع كل المواقف التى تجابهه والتى لا يختارها وإنما قد تفرض عليه.

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكتشاف
وعادة ما تكون المعلومات المتاحة قليلة، وعليه أن يتعامل مع موضوعات غامضة مثل
السلوك الإنساني أو السياسة أو الاقتصاد. وحتى لو توافر للمرء قدر كاف من
المعلومات والمعارف فهو غالباً لا يمتلك الوقت الكافي.

ولو اتخذ التفكير الجارى نهج التحليل العلمى، لأصاب الحياة اليومية الشلل،
حيث يختلف الهدف فى الحالتين اختلافاً جذرياً، فبدلاً من الاندفاع الأوتوماتيكي بحثاً عن
أدق التفاصيل نكتفى فى الحياة العملية بأبسط التفسيرات التى تتيح توجيهنا.

ويعتبر التفسير مفصلاً بالدرجة الكافية إذا أتاح لصاحبه اتخاذ أحد القرارات

التالية:

- أن الموقف لا يهم ولا يستحق التعب فى محاولة فهمه.
 - أن الموقف مهم ولكنه لا يتطلب عمل أى شئ فى اللحظة الراهنة.
 - أن الموقف جد خطير ويجب تلافيه.
 - أن الموقف جيد ويستحق الاستمتاع به.
 - أن الموقف محدد ويتطلب اختيار محدد.
 - أن الموقف يحتاج المزيد من المعلومات (عندما يتأمل المرء مثلاً عملية التفكير).
- ونلاحظ أن أياً من القرارات الستة لا يحتاج على التو معرفة تفاصيل كاملة، إذ
يمكن الاكتفاء بأى مستوى دون المستوى الخامس لكى يتخذ المرء خطوة إلى الأمام.
وقد تتضمن هذه الخطوة للأمام التوغل فى البحث نحو المستوى الخامس، ولكن هذا
التوغل يحدث لبعض الوقت فقط.

ومما يذكر أن مستويات الفهم المختلفة تماثل الجسور المتدرجة فى قوتها
وارتفاعاتها لوادى شديد الانحدار، وعلى الفرد أن يعبره. فالفرد يستخدم الجسر أو
مستوى الفهم الذى تكفى قوته لقضاء غرضه. ولكن: أليس من الأفضل دائماً السعى
نحو معرفة أقصى ما يمكن من التفاصيل؟ حتى لو كانت الضرورة لا تملئ ذلك؟ فعادة
ما يشعر المرء برغبة فى التعمق حتى المستوى الخامس ما استطاع. ويتفاخر الإنسان
بما يمكن أن يقدمه من شروح مفصلة ويعتذر متحرجاً عن سطحية أية شروح أقل منها
فى مستوى التفكير.

ومن ناحية أخرى، هناك خطر من زيادة التعمق فى التفاصيل، حيث يصعب
تصنيف الإجابات وتحديد الصحيح منها.

ولا شك أن الأمر يكون سهلاً إذا توافرت الشروح والرسوم التفصيلية، ولكنه يتعذر على المستويات الأدنى من التفكير والتفسير، حيث قد تتضمن أية مقولة عامة تفسيراً صحيحاً حتى ولو لم يكن ذلك التفسير في ذهن صاحب المقولة. وكما يعرف السياسيون والأطباء والمنجمون، فإن المرء يمكنه التقليل من احتمالات الخطأ بأن يتحدث بعمومية؛ لأن التورط في التفاصيل ينطوي على مجازفة بالوقوع في الخطأ. وقد يبدو هذا موقفاً جباناً ولكنها الحقيقة، فلو كان على الفرد اختيار عمل ملائم فمن الأفضل أن يبينه على تفسير عام احتمال خطئه قليل، بدلاً من أن يبينه على تفسير ملئ بالتفاصيل ولكن احتمالات الخطأ فيه كبيرة. ولكن العلم يقتضى البحث عن المزيد من التفاصيل في محاولة لإثبات الخطأ [اختبار الفرض هو محاولة للبحث عن الخطأ أى إثبات خطأ الفرضية، فإن لم يثبت خطأها؛ فيفترض صحتها إلى أن يثبت العكس في المستقبل]، لأن هذه هي الطريقة التي تتطور بها الأفكار والنظريات.

وحتى في العلم، قد تضر الشروح المفصلة أكثر مما تنفع إن لم تتوافر بيانات كافية لاستبعاد تفسير خطأ. ويميل التفكير الإنساني بشدة لبناء نظم من الشروح هائلة التعقيد والتي لا برهان على صحتها سوى النظام المنمق، الذي تتساند به هذه الشروح على بعضها البعض. ويمتلئ تاريخ العلم بشروح مفصلة في الكيمياء القديمة والتنجيم الفلكي وقراءة الطالع وغيرها، ويمتلئ تاريخ الطب وعلم النفس على وجه الخصوص بشروح مفصلة وقفت عائقاً في طريق التقدم بدلاً من مساعدته. ولو كان كل ما لدى المرء هو أفكار مبهمة لحاول توضيحها وانفتح بعقله على الأفكار الجديدة، أما لو امتلك شروحا مفصلة تبدو له مكتملة؛ فلن يكون عليه إلا الحفاظ عليها والدفاع عنها.

ومن الخطأ البين القول بأن التفسيرات العامة تعد أفضل من تلك التفصيلية، كما أنه من الخطأ في المقابل الزعم بأن الشروح المفصلة هي بالضرورة الأفضل، والمهم في حقيقة الأمر هو مقدار ما تنطوي عليه الشروح من فائدة. وكثيراً ما لا يضيف المزيد من التفاصيل فائدة تذكر لكنه يضيف مظهراً إضافياً زائفاً للحقيقة. والمهم فعلاً هو إلى أين تؤدي التفاصيل بالإنسان. وربما كان الانطلاق من فكرة عامة أسهل من الاعتماد على فكرة واضحة التفاصيل قد تقتضى الارتداد للخلف أولاً. غير أن ذلك ينطوي على مخاطرة، حيث قد يحجم الفرد عن الانطلاق أصلاً من الفكرة العامة لو تراءى له الاكتفاء بما تتضمنه، دون حاجة لمزيد من التبرير أو التغيير.

فى عصرنا الحالى، يعرف الإنسان كيف يستعمل الآلة، ولكنه فى حالات كثيرة يجهل ما يدور داخل الآلة. بمعنى؛ يعرف الإنسان فى وقتنا هذا أن الآلة بها زراً يضغط عليه فتدور، لذا يجب عليه الضغط على الزر الصحيح، دون اهتمام يذكر بمكونات ومعدات الآلة نفسها، وأيضاً دون اهتمام بأسباب اختيار ذلك الزر بالذات.

وبطريقة ما تعود بنا حضارة الأضرار لعصر التعاويذ السحرية، ففى الماضى كان على الفرد أن يعمل عملاً سحرياً ليحصل على تأثير معين، تعاويذ ليمرض عدوه أو ليسقط المطر. ولا تحتاج التعاويذة فهما يزيد على ما نفهمه عندما نضغط على زر لتشغيل جهاز التليفزيون، فبدلاً من الدخول فى سلسلة من الأسباب والنتائج، تحدث الأشياء بمجرد الضغط على الأزرار، فالمسألة لا تعدو التعرف على الزر الصحيح وضغطه. وهكذا صارت الكهرباء والالكترونيات هى سحر العصر الحديث كما قلنا من قبل.

قد يبدو لنا مسألة ضغط الأزرار أكثر بدائية بما أنها تمثل عودة لأيام "السحر"، ولكنها تعد من زاوية أخرى خطوة للأمام نحو أسلوب أكثر تعقيداً فى النظر إلى الأشياء، فقد حل الاهتمام المتزايد بفهم النظم المعقدة محل النهج الاستاتيكي الذى اصطبغ به العلم فى القرن التاسع عشر. وربما يرجع جانب من ذلك إلى الاهتمام المتزايد بعلوم الأحياء التى هى نظم معقدة لا يمكن تفكيكها كما تفك آلة بخارية مثلاً. ويشبه المدخل القديم المبني على السبب والنتيجة أن نضع ثلاثة كتب، كتاباً فوق الآخر فنجد أمامنا ثلاثة كتب متراسة إلى أن ننقلها مرة أخرى. وهذا هو النهج الاستاتيكي أو السكونى. أما فى النظم المعقدة فهناك تدفق لا ينقطع من الأحداث، ولا يتركز الأمر على مجرد جعل الأشياء تحدث، وإنما على إيجاد الأسلوب السليم للتأثير على الأشياء من أجل تحقيق نتيجة معينة أفضل. وهذا هو النهج الديناميكي. وقد لا يكون التأثير المترتب من الفعل هو النتيجة الحتمية له، لأنه مرهون بالتفاصيل الخفية والداخلية للنظام المعنى.

وفى الطب وعلوم الحياة نعرف ونعترف بوجود نظم معقدة ونبحث دائماً عن الأضرار الصحيحة التى نضغطها لنحصل على التأثيرات المطلوبة. وأحياناً نعرف الآلية التى تتم بها أهدافنا. ولكن فى أغلب الأحوال "تضغط الأزرار" دون معرفة بالتفاصيل.

وعندما تزداد الآلات تعقيدا وبالتالي آليات الحياة ذاتها، فإن معظم البشر لا يكونوا على درجة كافية من الكفاءة ولن يكون بوسعهم تحمل أى شيء. ولكن التحول إلى ثقافة الأضرار فى عصر الأتمتة يودى إلى تفادى هذا الخطر، فمهما كان تعقيد الآلة لن يكون على الفرد إلا أن يضغط على الزر الصحيح.

قد يشعر البعض أن عدم معرفة التفاصيل الداخلية للآلة يعنى الجهل، ولكن بات من السهل الآن التعامل مع جهلنا بصورة فعالة بدلا من التعثر فيه، عن طريق ثقافة الأضرار.

قد ينظر مهندس سيارات بشئ من الاستهانة لفتاة تقود سيارة لا تعرف عنها إلا أنها صندوق سحري يعمل بإدارة مفتاح الكونتاكت. ولكن هذا المهندس نفسه يتعامل هو الآخر مع صناديق سوداء فى عمله، فهو لا يعرف كل شئ عن كيمياء البنترول ويتعامل مع القليل الذى يعرفه بطريقة الصندوق الأسود، هل هو يعرف كل شئ عن زيوت التشحيم؟ وهل يعرف كل شئ عن خواص الفلزات التى صنعت منها التروس؟ أم أنه يستخدمها على طريقة الصندوق الأسود؟

وبعامة مهما بلغ تعمق المرء فى المعرفة، فإنه سينتهى إلى مجموعة من الصناديق السوداء. وهذا لأن ملاحظة ورصد تأثير ما لهما أسهل من فهم كيفية حدوث هذا التأثير.

والعلم يمثل بالصناديق السوداء، وتعتبر "الجانبية" مثالا واضحا لهذا، فنحن نعرف كيف نحسب تأثيراتها بدقة بالغة تكفى لإتزال بشر على سطح القمر، ولكننا لا نعرف ما الجانبية على وجه التحديد. و "المغناطيسية" هى صندوق أسود آخر وكذلك "الالكترون" و "الضوء".

ويكتسب مفهوم "الصندوق الأسود" أهمية بالغة، فبدونه تستحيل الحياة العملية ويستحيل البحث العلمى. وتكمن أهميته فى أنه يجعلنا نتقدم فى وقت واحد على مسارى الحياة، أى التفكير والحركة.

الصناديق السوداء تمكننا من استغلال التأثيرات دون أن نعرف التفاصيل التى تجعلها تحدث، وبالتالي فهى تمكننا من التعامل مع الأشياء برغم جهلنا بالتفاصيل. المهم أن يضغط الفرد الزر الصحيح ليطلق التأثير الذى يريغه.

وأول خطوة لاستخدام "الصندوق الأسود" هى التعرف عليه لضغط الزر الصحيح. وبمجرد أن يتعرف الفرد على الموقف، سوف يعرف ما ينبغى أن يعمل به

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكشاف
ليحصل على التأثير المطلوب، ولهذا فإن الأسماء تكتسب أهمية بالغة لأنها الوسيلة
الرئيسة لتعريف الأشياء.

(أ) حزم الأفكار :

حزمة الأفكار هي ما يتكون لدى الفرد إذا جمع بين فكرتين أو أكثر، فجملة
مثل "آلة لقياس الزمن" هي حزمة فكرية، والجملة "نظام سياسى يختار فيه الشعب
حكومته" هي حزمة فكرية أخرى. وإذا تكرر استخدام حزمة أفكار بكثرة، فإنها تسمى
فى النهاية باسم ما. فآلة لقياس الزمن تصبح "الساعة"، والنظام السياسى المذكور يسمى
"ديمقراطية". وبمجرد أن تكتسب حزمة أفكار اسما فإنها تصبح مستديمة، إذن فالفكرة
المسماة ليست إلا حزمة من الأفكار التى صار لها اسم وهكذا فإن أسماء مثل "ساعة" و
"قطعة" و "فار" و "حب" و "نذبة" و "حركة" هي حزم أفكار. وتلعب الأفكار المسماة
دورا بالغ الأهمية فى التفكير، وهناك كثير من الأشياء لا نستطيع التفكير فيها برغم
أهميتها؛ لأن ليس لها أسماء حتى الآن.

وأهم ما يميز حزم الأفكار أنه يمكن تجميعها وتفكيكها بسهولة. أما الفكرة -
المسماة فهي حزمة أفكار مستديمة. ويمكن إضافة أفكار جديدة للفكرة المسماة، ولكن
من الصعب جدا إزالة أفكار مما فيها - وهكذا فإن من يبدأ من منطلق الفكرة القائلة بأن
"الرأسماليين انتهازيون" ربما يمكن إضافة الفكرة القائلة بأنهم "أصحاب فعالية وكفاءة"،
ولكن من الصعب جدا أن يفكر فيهم كممولين للمجتمع منفقين عليه.

(ب) حركة الأفكار :

التفكير هو انتقال العقل من فكرة إلى فكرة، وهو حركة تلقائية تأتى من التبادل
بين فكرة مسماة وحزمة أفكار. ونضرب مثلا بمجموعة من الأطفال يستعدون للذهاب
إلى حفل تنكرى، ويجتذبون قطعا من الملابس القديمة من صندوق كبير، وبينما يرتدى
أحدهم ملابسه التنكرية يصيح زميل له: "أنت تبدو كالغجرى / أو كقرصان". وهنا،
تشكلت من مجموعة الملابس (وتمثل هنا حزمة الأفكار) التى جمعها الطفل عشوائيا
"فكرة" صار لها "اسم محدد". كما يمكن أن يبدأ طفل آخر من فكرة التنكر فى زى شيخ
عربى، وبناء عليها يجمع الملابس التى تكون حزمة الأفكار التى تجعله "كشيخ عربى".
بدأ الطفل الأول من حزمة الأفكار [اختيار عشوائى بلا تسمية محددة] وانتهى منها إلى
فكرة مسماة. أما الثانى فبدأ من الفكرة المسماة [الشيخ العربى] وانتهى إلى حزمة
الأفكار [مجموعة الملابس التنكرية التى تعطيه شكل شيخ عربى].

ويمكننا تصور تلك الحركة التلقائية للأفكار إذا بدأنا من الحزمة تسمى ما يتحرك بانتظام مع مرور الوقت، ومنها إلى الفكرة المسماة "الساعة"، ومن الاسم "ساعة" إلى حزمة فكرية ترتبط به "آلة ميكانيكية لقياس الزمن".

وليس من الضروري أن تحتوى الحزمة الفكرية التى انتقلنا إليها من فكرة مسماة، على كل مجموعة الأفكار المتضمنة فى الفكرة المسماة وإنما يكفى بعضها فقط، وهكذا يمكن أن ننقل - مثلا - من الفكرة المسماة "مغناطيس" إلى الحزمة "التأثير عن بعد"، دون الخوض فى تفاصيل خواص.

وفى أية محاولة لفهم موقف غريب، يمكن كتابة قائمة بكل ما يعن للفرد من ملاحظات ثم يجمعها فى حزمة أفكار. والهدف من كتابة مثل هذه القائمة، هو الأمل فى أن يستشف المرء منها فكرة مسماة تنطبق عليها مواصفات حزمة الأفكار.

إذا، قائمة المطلوب هى فى الواقع حزمة أفكار فكرة مسماة لم يتم الوصول إليها بعد، يمكن الاستعاضة عنها بكلمة واحدة قد تكون أكثر ملاءمة وهى كلمة "المطلوب".

وليس من المعتاد إتمام كتابة قائمة بمواصفات "المطلوب" من أول محاولة، وغالبا ما يبدأ المرء كتابة قائمة صغيرة، يصل منها إلى فكرة مسماة يضيف إليها مواصفات أخرى مطلوبة، ثم منها إلى فكرة مسماة جديدة... وهكذا.

فى محاولتنا للفهم نجمع حزم الأفكار ونبحث من خلالها عن الأفكار المسماة، حيث أنها تشكل الباعث على التصرف. فالأفكار المسماة هى مواقف معروفة وأيضا ردود الفعل السليمة الملائمة لها معروفة. أما حزم الأفكار هى تجميعات مؤقتة للأفكار لا نعرف لها ردود أفعال محددة. فإذا قيل أن شخصا دخل غرفة وهو يحمل بيده "شيئا لامعا طويلا ويمسكه أفقيا". فهذه حزمة أفكار لا تثير رد فعل فوريا إزاءها، أما إذا تحولت تلك الحزمة الفكرية إلى الاسم "سلاح"، فسوف يسعى كل من فى الغرفة إلى محاولة الاحتماء.

ونحن نبحث عن الأفكار المسماة، لأنها توحى لنا بما ينبغى عمله، ولأنها أيضا أسماء لأشياء حقيقية فى متناولنا.

والأفكار المسماة هى تجميعات ثابتة ودائمة من الأفكار، ونحن نسعى للاهتمام إليها بسرعة حتى نعرف ما ينبغى علينا عمله. ولكن ثبات الأسماء وجودها قد ينطوى على فخ نتعرض للوقوع فيه. وكمثال: فى سياق السياسة، إذا نظرنا لتصرفات حكومة

ما وتسرعنا بإطلاق كلمة "قاسية" عليها، نكون أوقعنا أنفسنا في الفخ الفكري نفسه الذى قد يجعل أحد المسؤولين بالحكومة يصف أى إضراب بكلمة "شيوعى".
(ج) مخزون الأفكار :

ولا يفكر الإنسان إلا من خلال الأفكار المسماة المختزنة فى عقله . فلو كان مخزونه من الأفكار قليلا؛ فإن تفسيراته للمواقف ستكون فقيرة محدودة أيضا . فالشخص الذى يقتصر فى تصنيفه لموقف الناس تجاه العمل على "نشاط" و "كسالى" تفوته ملاحظة أن بعض الأشخاص يبدون كسالى لأن الأعمال التى يمارسونها لا تثير اهتمامهم، ولكن إذا وجدوا الدافع للعمل، فسوف يتحولون إلى "نشاط". وهنا، نحتاج لفكرة ثالثة نضيفها لتصنيف الناس وهى "شخص يفتر إلى الدافع".

ويمكننا تصنيف الأفكار المسماة المختزنة فى العمل إلى ثلاث فئات:

- * أفكار مسماة محددة: وتشمل أسماء الأشياء المحددة (كلب - حصان - قنبلة ٠٠٠) والأوصاف المحددة (ديمقراطية - صاحب عمل - تقدمى - رجعى - شمولى ٠٠٠) والسلوكيات المحددة (حب - عدل - اختراع ٠٠٠).
 - * أفكار مسماة هلامية مبهمه: وتشمل مسميات مثل: آلية - جهاز - ترتيب - معدة - المطلوب - شئ ما - طريقة ما ٠٠٠.
 - * أفكار معبرة عن تفاعلات وعلاقات بينية: ويرتبط هذا النوع من الأفكار بالمعالجات والتصرفات، وبالعلاقات والتفاعلات . وتستخدم مثل تلك الأفكار - وما هى إلا كلمات دالة - فى جلب واستجماع أفكار أخرى ثم بيان كيفية ارتباط كل منها بالأخرى . ومن أمثلة هذه الأفكار: عارض، عدل، سبب، نم ٠٠٠ إلخ .
- وتصنع حزم الأفكار من الأفكار المبهمه والأفكار المعبرة عن التفاعلات والعلاقات، وكلما امتلك المرء مخزونا ثريا منها، زادت قدرته على تكوين مجموعات الأفكار الملائمة للمواقف التى يواجهها . ومثال هذا أن يمتلك الرسام مجموعات من الألوان وفرش الرسم والخامات التى تمكنه من تكوين لوحاته . ولكن لا مفر دائما من أن ينتقل المرء من الحزم الفكرية إلى الأفكار المسماة، فإن افتقر للقدرة على تكوين أفكار مسماة [= مفاهيم] جديدة، فسيظل مرغما على استخدام مخزونه القديم مهما اختلفت نوعية ودقة الحزم الفكرية الجديدة التى يتعرض لها .

تميل حزم الأفكار إلى أن تكون من المستوى الرابع، الذى يصف طريقة عمل الأشياء، ويتضمن هذا الوصف عدة أفكار وعلاقات وتفاعلات بينها، أى أنه يمكننا القول

بأن الوصف على المستوى الرابع هو حزمة أفكار . أما الأفكار المسماة فتميل للانتماء إلى المستوى الثالث (مستوى تسمية الأشياء)، حيث يسعى المرء إلى إرجاع موقف جديد إلى موقف مألوف له، مثل أن يرد حدثاً ما إلى الكهربائية أو المغناطيسية أو السحر وهكذا .

وتقف المبادئ المحددة مع الأفكار المبهمة على طرفي نقيض وبينهما درجات مختلفة من الفهم؛ ولذلك فقد يبعث على الدهشة أنه قد يصعب التمييز بين هذين الطرفين المتباعدين في بعض الحالات .

تنتمي الفكرة العامة المبهمة إلى المستوى الثاني (الكلمات الهلامية)، أما المبدأ المحدد فيقدمه شخص فكر في عدة تفسيرات محتملة على المستوى الخامس بأعلى درجة من التفصيل ثم استخلص من كل الاحتمالات المبدأ الأساسي .

وقد نندش عندما ندرك أننا أحياناً قد لا نستطيع أن نميز بين المبدأ المحدد والفكرة المبهمة، أي أن عبارة واحدة لا يمكن تحديد انتمائها إلى المستوى الثاني أم إلى المستوى الخامس .

يتضح من ذلك أن عبارة تحمل مبدأ محدداً قد لا تكون أكثر فائدة من مجرد ذكر فكرة عامة مبهمة، وفي المقابل ربما اقتربت الفكرة العامة المبهمة من المبدأ المحدد فيما يستخلص منها من فائدة .

والفارق الحقيقي بين نوعي العبارتين (على المستوى الثاني أو على المستوى الخامس) هو أن صاحب إجابة المبدأ المحدد يعرف أن تفسيره صائب، ويمكنه أن يشرح التفاصيل الكاملة إذا طلب إليه ذلك . أما صاحب الفكرة المبهمة فليست لديه أية تفسيرات محددة . ولكن لو كانت الفكرة المبهمة على درجة كافية من العمومية، فإنها على الأرجح سوف تشتمل على الإجابة الصحيحة .

ولا عجب من أن البشر على مر التاريخ لم يتمكنوا أبداً من التمييز بين عبارات عامة (وليدة الجهل) والمبادئ المحددة (وليدة المعرفة)، ولو كان هذا التمييز ممكناً لتعرض الساسة والقادة لمواقف حرجة كثيرة . ولنضرب مثلاً بقائد يزج بشعبه إلى أتون الحرب، فليس لدى هؤلاء التعساء ما يفرقون به بين أن يكون هذا القرار وليد حسابات استراتيجية بعد اعتبار البدائل الممكنة، أم أنه فكرة مبهمة وليدة جهل القادة وعجزهم عن تصور بدائل أخرى محددة . وبالمثل، فمن الصعب تحديد إن كان فرض ضريبية، مبني على فهم تام لوضع العاملين أم أنه مبني على الجهل به .

خلاصة الحديث السابق :

- من سمات التحليل العلمى أنه ينطوى على كثير من المعطيات وقليل من العمل، أما فى الحياة فالعكس صحيح.
- يقتضى البحث العلمى التركيز والتدقيق، أما الإنسان فى الحياة العملية اليومية فعليه أن يتعامل مع كل المواقف المختلفة والتي لا خيار له فيها، بل تلقىها الحياة فى طريقه.
- يعتبر أى تفسير كافياً ما دام يسمح لصاحبه بالانطلاق من الفكر إلى العمل.
- من الأفضل أن يكون التصرف مبنياً على تفسير عام يتضاءل فيه احتمال الخطأ عن أن يبنى على تفسير دقيق وتفصيلى تزيد فيه احتمالات الخطأ.
- "المطلوب" هو تسمية مؤقتة لحزمة أفكار (مثل: قائمة مواصفات الشئ / الحل الذى نبحث عنه).
- نحن لا ننطلق للعمل إلا بعد الوصول إلى أفكار مسماة محددة (مفاهيم).

(د) العمليات الذهنية الأساسية للتفكير :

قد يبدو أن التفكير شئ ينطوى على عمليات بالغة التعقيد، ولكن حتى العمليات الأكثر تعقيداً قد تكون مبنية على أسس بسيطة للغاية، فالكومبيوتر الذى يجرى أعقد العمليات الحسابية، والتي أتاحت للإنسان الهبوط على سطح القمر، يرتهن كل تعقيده على مفتاح Switch يمكنه أن يقول نعم أو لا . وما قصر فرساي (الشهير فى فرنسا) إلا بناء من الأحجار المتراسة، وكل التعقيد الهائل للكيان الإنسانى مبنى على تفاعلات كيميائية بسيطة .

وبنفس الأسلوب، سنتعرف فى الحديث التالى على عمليتين أساسيتين بسيطتين يقوم عليهما التفكير بكل ما هو عليه من تعقيد، وهما: "الاستمرار" و "الربط"، ويمكننا تصور المخ كشبكة من الأعصاب تتخللها ذاكرة توجه مختلف الأنشطة المتقدمة المتدفقة من خلال السطح. وقد ورد وصف مسلك مثل هذا النظام فى كتاب "آلية العقل" (Mechanism of Mind) ويتسم هذا النظام بدرجة من البساطة تبعث على الدهشة، ومع ذلك فهو يقوم بعمليات بالغة الصعوبة والتعقيد شأنه فى ذلك شأن الكمبيوتر .

* العملية الأولى للتفكير : استمر (Carry on) :

العملية الأولى للتفكير هي أن يستمر . "استمر" تعنى أن يواصل الفرد ما يقوم به من نشاط، فإن كان يسير فى شارع فليواصل، وإن كان يردد الحروف الأبجدية فيستكملها إلى نهايتها، وإن كان يردد أغنية فيكملها، وإن بدأ فى وصف ملامح وجه شخص ووصف شعره ثم عينيه ثم أنفه، فيمضى إلى إتمام كل الوصف . باختصار، "استمر" تعنى أن الفرد إذا بدأ شيئاً ما فليمض فيه إلى نهايته .

غير أن عملية الاستمرار تقتضى أن يكون هناك شئ فى الأصل ليواصله الإنسان . وفى حالة التفكير، فإن هذا الشئ هو مكتبة الذاكرة، وبمجرد أن يبدأ فى البحث فى هذه المكتبة عليه أن يستمر حتى النهاية، وما مكتبة الذاكرة إلا سلسلة من الأفكار المتوالية . وهكذا قد يستمر المرء عند التفكير فى التنقل من فكرة إلى فكرة .

العملية التى نطلق عليها "استمر" بسيطة جداً وتحدث فى أى نظام للذاكرة وليس فقط فى التفكير الإنسانى، وهى تعنى ببساطة أن فكرة تتلو أخرى .

• العملية الثانية للتفكير : اربط (Connect up) :

بينما تعنى العملية "استمر" متابعة سلسلة من الأفكار على خط مستقيم، فإن عملية "اربط" تعنى البدء من فكرتين منفصلتين ثم محاولة الربط بينهما، ويمكن وصفها بأسماء أخرى مثل "ملء الفراغات" أو "سد الفجوات" أو "الوصل" .

ليس التفكير إلا انتقالاً من فكرة إلى فكرة . وفى عملية الاستمرار (Carry on)، تملأ الخبرة الماضية تسلسل الأفكار، فمثلاً: تعلم الفرد بالتجربة أن رئيسه يتسلسل إلى مكتبه ليحاول أن يفاجئه بالتفتيش عليه، فيكفى أن يسمع وقع أقدام تقترب ليعرف أنه ربما يكون رئيسه قد جاء ليعرف ما يعمل . وفى عملية الاستمرار، لا يمكن للمرء أن يحدد خطوة واحدة عن تسلسل الأفكار المحفوظة فى ذاكرته، أى أنه عبد لخبراته الماضية . أما فى عملية الربط فيمكن أن يحاول الفرد بإرادته توليد حركة الأفكار فيبدأ باختيار فكرتين ثم يحاول الربط بينهما، وعادة ما يبدأ المرء باختيار فكرة واحدة ثم يحاول ربطها بواقعة الراهن . وكمثال: إذا كان الفرد فى مدينة "كيمبردج" وأخذت الفكرة "لندن" تراود ذهنه، فإن العلاقة بينهما قد تتولد كالتالى: "كيف أصل إلى لندن؟ - بالقطار" .

ويمكن للفرد أن يجرب بنفسه عملية الربط هذه Connect up بأن يختار عشوائياً كلمة من قاموس ثم يحاول ربطها بأية مسألة يبحث فيها . وقد يبدو أن ربط

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكتشاف —————
كلمة عشوائية بمشكلة محددة أمر بعيد الاحتمال، ولكن الواقع أنها مسألة يسيرة، وذلك ما يوضحه المثال التالي:

المسألة : حل مشكلة ازدحام المرور بداخل المدن .

الكلمة العشوائية : صابون .

وتتمثل عملية الربط بينهما، فى الآتى:

* الصابون يبعث على التزلج - حركة منزلقة للسيارات عبر شوارع المدينة - منع صف السيارات فى الشوارع وإزالة محطات الأتوبيس وإشارات المرور - تسهيل حركة السيارات ومنع توقفها بأى طريقة كانت - وقوف السيارات فى أماكن محددة فقط .

* الصابون يستعمل لإزالة الأوساخ - نقل المناطق المرورية "القذرة" - أى المزدحمة جدا - بعيدا عن المناطق السكنية والتجارية .

* الصابونه تتآكل بتكرار استعمالها - وجود نظام يودى إلى تآكل الشوارع ذات الكثافة المرورية العالية . . . الأمر الذى يسفر عنه إما اتساع الشوارع بحيث يسهل استعمالها . . . أو تزداد فيها المطالبات فيصعب استعمالها - تكوين نظام يعدل نفسه [تغذية مرتدة]، حيث يودى الاستعمال إما إلى زيادة معدل الاستعمال أو تناقصه .

ومما يذكر، تكمن مشكلة العملية "استمر" فى أنها قد لا تنتهى بالفرد إلى حيث يرغب، فلا خيار له فى تلك الرحلة التى يمضى فيها "محمولا" عبر مكتبة الذاكرة التى حفرتها تجاربه الماضية . أما فى عملية "الربط"، فيمكن للفرد أن يختار النقطة التى يرغب فى الانتهاء عندها، ثم يربط بينها وبين نقطة البداية . ويشبه ذلك أن ينظر الفرد فى خريطة ويبحث عن طريق يربط بين النقطة التى هو فيها والنقطة التى ينبغى الوصول إليها .

وعندما يسعى المرء إلى حل مشكلة ما، فإن منطوق المسألة لا يعدو عن كونه وصفا للغاية التى ينبغى الوصول إليها . كأن يقال على سبيل المثال:

"التخلص من ازدحام المرور فى المدن" .

أو "إزالة بقعة حبر من على البنطلون"، فكل تلك هى غايات .

ولو طرحناها كمشكلات؛ فسوف يأتى طرحها على النحو التالى:

كيف نحل مشكلة زحام المرور فى المدن؟

كيف أزيل بقعة الحرب عن البنطلون؟

وكل هذه التساؤلات تعنى محاولة الربط بين ما نعرف وما نرغب فى معرفته .

وننوه إلى أن السؤال هو سبيلنا للقفز إلى الأمام، إذ أنه حيلة ذكية لدفع التفكير قدما وتحديد اتجاهه نحو المطلوب بدلا من الاتباع الأعمى لخبرات الماضى المطبوعة فى الذاكرة . وحتى يحقق المرء تلك القفزة الفكرية، عليه أولا أن يحدد الجانب الآخر الذى يحاول الوصول إليه بأن يسأل سؤالا ليحدد وجهته .

ومن السهل أن يصل الفرد إلى غايته - إن كان يعرفها . ومما يثير الدهشة أن

تلك الغاية تتحدد بآلية الاستمرار الذهنى Carry on .

أما إن كان لا يعرف غايته على وجه التحديد، فالأمر أصعب وأعقد، فالسؤال "كيف أصل إلى لندن؟" هو أبسط من السؤال: "كيف أصل إلى مكان مشمس؟" كيف يمكن للفرد أن يصل إلى وجهة لم يحددها؟ وتكمن الإجابة فى: الكلمات الهلامية [غير المحددة] .

أن تلك الكلمات الخالية من المعنى تسمح لنا بصياغة أسئلة مبهمه أى أنها تفتح المجال للتساؤل عن أشياء لا نعرفها على وجه التحديد والقطع . وفى المثال: "كيف أذهب إلى مشمس؟"، فإن الكلمة المبهمه "مكان" تبعث على التساؤل عن شىء أقل توصيفا وتقصيلا عما لو كان السؤال هو "كيف أصل إلى أسوان؟" - مثلا .

فالجمله "المطلوب يحلق بسرعة فى الهواء وله خمس أرجل"، تساوى الجمله "الشىء الذى نبحث عنه يحلق بسرعة فى الهواء وله خمس أرجل" . ويمكن استخدام كلمة "المطلوب" لتفسير حدث ما - مثلا - العبارة: "غادر الرجل مسرعا لأن "المطلوب" ظهر أمامه فجأة"، تساوى فى معناها أنه "غادر مسرعا لأن الشىء الذى نبحث عنه ظهر أمامه فجأة" .

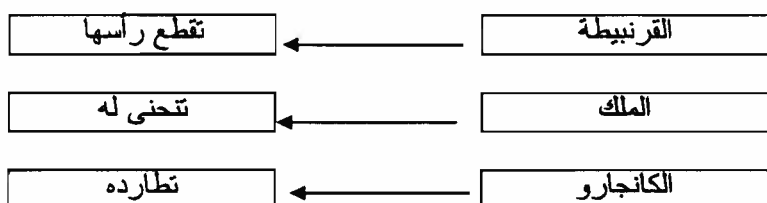
وتعد الكلمات الهلامية، شأنها فى ذلك شأن الصناديق السوداء، أداة للتعامل بها مع جهلنا . وكما أن فكرة "الصندوق الأسود" تتيح لنا فرصة تشغيل آلية لا نعرف كيفية عملها، فإن الكلمات الهلامية تتيح لنا إمكانية التحدث بعبارات محددة أو طرح أسئلة محددة عندما يتعلق الأمر بأشياء لا نعرفها على وجه التحديد . إن تلك الكلمات الغامضة تلعب دورا فى غاية الأهمية للتفكير الإنسانى .

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكشاف

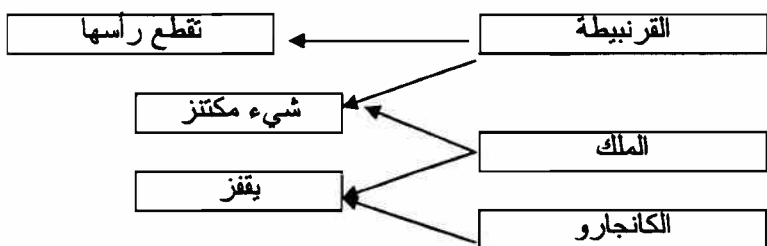
وقد يكون الإنسان أنكى من الحيوانات لأنه أغبى منها، ويعزى هذا التناقض إلى أن الإنسان يقطع فى تفكيره مراحل أبعد مما تقطع الحيوانات، لا لشيء إلا لأن تفكيره يعد أقل تحديدا ودقة عما لدى الحيوان.

قد تبدو لنا حدة الحواس والتفكير والقدرة على تعرف الأشياء بتحديد قاطع ميزة ظاهرة، تلك الميزة قد تنقلب إلى عيب فى بعض المواقف. أن التمييز الدقيق والسريع للأشياء يجعل الكائن يتعرف فوراً على الموقف الذى يواجهه ويتصرف فى الحال، وكلما زادت القدرة على التعرف زادت سرعة التصرف.

وفى مثال غريب سنعرف أن "القرنبيطة" شئ يختلف عن "الملك"! فما يفعله الفرد إزاء القرنبيطة يختلف جنسيا عما يفعله حيال الملك:



شكل (٣ - ١)



شكل (٣ - ٢)

يوضح الشكل التوضيحي (٣ - ١)، كيفية عمل مخ تتحدد فيه ملامح الأشياء بوضوح. أما فى حالة مخ يفكر بطريقة أقل وضوحا فربما كان من شأنه ألا يميز بين الملك والقرنبيطة؛ لأن كليهما شئ مكتنز ولذلك فهو يدرجهما تحت صنف واحد "الأشياء المكتنزة". وفى مرحلة لاحقة يبدأ هذا العقل المشوش فى التمييز بين الملك والقرنبيطة ويسمى كلاهما باسم يخصه، ولكن يظل المفهوم غير المحدد "الأشياء المكتنزة"، موجودا فى العقل (الشكل: ٣ - ٢).

فى العقل المشوش تأتى التصنيفات المبهمة أولا، ثم تقسم فيما بعد إلى أشياء محددة، وبما أن الحدود الفاصلة بين تلك الأصناف ليست قاطعة محددة، فيمكن أن يوضع الشيء نفسه تحت تصنيفات مختلفة فى مناسبات مختلفة. وهكذا يمكن أن يوضع الملك مع الكانجارو تحت صنف "الأشياء التى تقفز" ودون أن يلاحظ العقل المشوش أن الملك هو الملك فى الحالتين. وفيما بعد ينتهى هذا العقل إلى التمييز بينهما. فالكانجارو له ذيل والملك له تاج فوق رأسه والقرنبيط أخضر اللون، ولكن تبقى التصنيفات العامة المبهمة، مثل "الأشياء المكتنزة" و "الأشياء التى تقفز".

(هـ) روابط عرضية : Cross - Links :

إن التصنيفات المبهمة مثل "الأشياء المكتنزة" و "الأشياء التى تقفز" هى كلمات هلامية. وتلعب هذه دورا بالغ الأهمية فى ربط الأفكار بالعرض فتسمح للعقل بالانتقال من فكرة لأخرى. والمخ الواضح يفصل ويفرق فورا بين الملك والقرنبيط ولا يربط بينهما بأى حال، ولديه تصرف جاهز لا يتغير تجاه الموقف الذى يواجهه فيه كلا منهما، ولا مجال للوقوع فى خطأ الخلط بينهما، فهو لا محالة سينحنى للملك أو سيقطع رأس القرنبيط، أما المخ المبهمة فلديه الرابطة العرضية Cross - Link التى كونها فى مرحلة سابقة من تفكيره حيث أدرج كلا من "الملك" و "القرنبيط" تحت صنف "الأشياء المكتنزة" قبل أن ينتهى من الفرز والتصنيف. وعبر تلك الرابطة العرضية، يمكنه الانتقال من فكرة لأخرى.

ويتسم المخ الواضح بالقدرة على تكوين سلسلة من القنوات المتوازية [التى لا تلتقى ولا تتقاطع أبدا] لأن كل موقف محدد يتطلب تصرفا محددا. أما المخ المشوش، فلديه تنويعات ثرية جدا من الروابط العرضية التى كونها باستخدام الكلمات الهلامية. وهذا يعنى أن المخ الواضح لا يستجيب إلا بطريقة ثابتة لا تتغير، أما المخ المشوش فيمكنه أن يفكر كثيرا بينما ينتقل من فكرة لأخرى (فإذا كان كل من الملك والقرنبيط على - سبيل المثال - شيئا مكتنزا فلماذا لا تقطع رقبة الملك؟).

ولطالما امتدح الفلاسفة قدرة العقل الإنسانى على التجريب، أى استخلاص الملامح المشتركة بين عدة أشياء مختلفة. كما اعتاد الفلاسفة إعطاء تلك الملامح المشتركة أسماء جذابة تحولها إلى أفكار مجردة (مثل الاكتناز). وقد نبؤ لنا قدرة العقل على التجريد رائعة ولكن أحيانا تأتى الروعة عندما يعمل العقل فى الاتجاه المعاكس،

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكشاف
فبدلاً من النزوع إلى التجريد يبدأ من الكلمات الهلامية الغامضة ثم يصنفها ويحدد
معالمها فيما بعد .

إن الطفل عندما ينطق أول كلمات له ويقول: "بابا" . فإن كل شيء يتحرك هو
"بابا" ثم تضيق الدائرة وتتحصر على البشر فقط، ثم تتحدد أكثر لتقتصر على الرجال
فقط، إلى أن تتركز في نهاية المطاف على الأب وحده، ويأتي ذلك بعد وقت طويل من
التعلم . أما الحيوانات، فتتعلم التعرف على والديها دون خطأ خلال أول ساعة من
ولادتها .

ولأن المخ الإنساني "مشوش" ، فإن المولود البشري يستغرق وقتاً طويلاً ليتعلم
ويعتمد على نفسه، أما الحيوانات الوليدة فتقف على أرجلها فور ولادتها، وتكاد حيوانات
كالخيول والغزلان أن تجرى فور ولادتها . إن الحيوانات تولد باستجابات غريزية
جاهزة وليس عليها أن تتعلم .

وللحيوانات حواس وعقول حادة التمييز فتتعرف فوراً على الأشياء وتتعلم
بسرعة، حيث يرتهن التعلم السريع بالقدرة على التمييز . أما اللبس وعدم وضوح
الرؤية فهما يبطئان التعلم .

وهكذا ننتهى للنتيجة الغربية: أن الإنسان يفكر أفضل من الحيوان؛ لأن عقله
مشوش يفكر بطريقة غير قاطعة، أما الحيوان فعقله واضح محدد .

ويتميز العقل الواضح بسرعة الاستجابة . وهكذا في عالم الملى بالتنافس،
تتمتع الحيوانات ذات القدرة الحادة على التمييز بفرص أعلى للبقاء عن نظيراتها ذات
الإدراك المشوش . وبالمثل، فإن الحيوانات التي تولد مستعدة للحياة العملية تتمتع
بفرض أفضل للبقاء من تلك التي تتعرض بلا حول ولا قوة لسنوات قبل أن تتمكن من
إطعام نفسها . ولكن لو تمكنت تلك الحيوانات مشوشة الإدراك من البقاء في قيد الحياة .
فإنها ستتعلم وتصل إلى مستويات تفوق بمراحل الحيوانات ذات التفكير الواضح . فتلك
الأخيرة تكتسب بسرعة عدداً من قوالب التفكير وردود الأفعال؛ ولكنها سرعان ما
تتحول إلى أسيرة لهذه القوالب . أما الحيوانات مشوشة التفكير فتنتقل من فكرة لأخرى
خلال بحثها المتعثر الذي نسميه بالتفكير .

لقد ورد ذكر "الكلمات الهلامية" في عدة مواضع سابقة، ومن المفيد تلخيص
فوائد هذه الكلمات هنا .

فالكلمات الهلامية تخلو من المعنى، وهذه التسمية على وجه التحديد هي التى تجعلها بالغة الأهمية بالنسبة للتفكير، فهي تشكل حلقات للوصل بين الأفكار، ولولاها لانتهى التفكير لطرق مسدودة إن لم يجد أمامه خطوة مباشرة تنتهى به عند فكرة محددة. وتتلخص الاستخدامات المتنوعة للكلمات المبهمة فى النقاط التالية:

- أنها تسمح للمرء أن يصوغ أسئلة هلامية عندما لا يمتلك المعلومات الكافية التى تمكن من طرح سؤال محدد بوضوح.
- أنها تمنا بتفسيرات مفيدة عندما نعجز عن تحصيل المزيد من التفاصيل.
- تمثل حلقات وصل بين الأفكار تتيح الانتقال من فكرة لأخرى.
- تؤدى دور الصندوق الأسود فتسمح للمرء أن يقفز فوق الفجوات (فجوات جهله) ويستمر فى تفكيره.
- تمنع الالتصاق والالتزام السابق بفكرة محددة، وبالتالي تتيح الاحتفاظ بعقل مفتوح للبدائل المتواردة عليه ولأطول مدة ممكنة.

وهنا تتفاقم ظاهرة Paradox بين أن الكلمات الهلامية تأتى نتيجة الجهل، وبين أنها تمثل أدوات فى غاية الأهمية للتفكير.

ومن الغريب أن تقاليد الفكر الغربى (وليس الشرقى) كانت دائما وعبر القرون تتحاز إلى جانب الأفكار المحددة وضد الكلمات المبهمة. وهكذا أرسى المفكرون أصحاب التمييز العقلى الواضح أفكارا جامدة ثابتة تماثل استجابات الحيوانات واضحة التفكير. وكثيرا ما تفوتنا ملاحظة أن المبدعين من أصحاب التفكير المشوش هم الذين جاعوا بأفكار عامة جديدة مبهمه ثم طوروها فيما بعد إلى أفكار محددة. أن التفكير الواضح لا يمكن أن يأتى بأفكار جديدة؛ لأنه لا ينام ولا يقع فى الخطأ. أنه على الدوام حبيس الأفكار المكونة من قبل. ومن العجيب أننا لا نشجع إلا التفكير الواضح، بالرغم من أن ميزة المخ البشرى هي عدم وضوح الرؤية، هذه الميزة التى تمكن الإنسان من الابتكار والإبداع. وبالطبع لا مجال للجدل فى أن التفكير الواضح ضرورة لا غنى عنها. ولكن فقط عند فحص وتطوير وتطبيق الأفكار الجديدة والتى يولدها التفكير المشوش بالجملة. وطبعاً يمكن أن تحمل الحاسبات الآلية (قمة الوضوح والتحديد المنطقى) عبء تلك المرحلة الثانية من التفكير.

خلاصة القول :

- كما أن مفهوم "الصندوق الأسود" يتيح فرصة استخدام آلة لا تعرف تفاصيل عملها، فإن "الكلمات الهلامية" تسمح بصياغة عبارات أو أسئلة محددة عن أشياء لا نعرفها على وجه التحديد.
- تكتسب الحيوانات واضحة التفكير عددا قليلا من ردود الأفعال أو التصرفات السريعة الملائمة، ثم تبقى أسيرها مدى حياتها.
- كثيرا ما نفوت ملاحظة أن المبدعين (أصحاب التفكير المشوش) بدعوا بطرح أفكار مبهمة جديدة، ثم حددوا معالمها وطوروها فيما بعد.
- لا يمكن أن يأتي التفكير الواضح بأية أفكار جديدة؛ لأنه لا يناور ولا يقع في الخطأ؛ ولأنه أولا وأخيرا يظل حبس الأفكار القائمة والراسخة في الذاكرة.

(٣) طرائق الخطأ :

توجد أخطاء شائعة تتجم بشكل طبيعي من عملية التفكير . أخطاء تتحقق تماما مثلما يتحقق خروج العادم من آلات الاحتراق الداخلي . وفي هذا الحديث يتم عرض خمسة من أكثر أخطاء التفكير شيوعا، واحدا منها يمكن أن يتكرر بنسبة عالية بدرجة كبيرة.

(أ) خطأ المونوريل : Monorail Mistake

المونوريل، هو القطار المعلق على قضيب واحد، والذي يمثل المسار الواحد المحدد تماما للفكر . ومن أمثلة هذا الخطأ ما يلي:

- "ابتلت القطة لخروجها تحت المطر وسأضعها في مجفف الغسالة الدوار كما تفعل أمي بالملابس المبللة". هكذا فكر الطفل بطريقة المونوريل ليجفف القطة.
- "هذه الأقراص لونها أحمر جميل ومن المؤكد أنها لذيذة الطعم". هكذا يحدث الطفل نفسه بينما يغترف بيده حفنة من الأقراص من صيدلية الحمام.
- "صيد الأرانب البرية رياضة رائعة، فلنستورد بعض الأرانب من إنجلترا". هكذا فكر توماس أوسن في استراليا عام ١٨٥٩، فأحضر ٢٤ أرنباً وأرنبية تناسلوا وتكاثروا بدرجة سببت تلفيات تفوق المليون جنيه إسترليني في أستراليا.
- وتنشأ غلطة "المونوريل" عندما يسير التفكير في خط واحد لا يحيد عنه، وذلك على النحو التالي:

البال - المجفف الدوار .

أحمر - حلوى .

رياضة - أرانب .

بما أن التفكير يعنى الانتقال من فكرة لأخرى، فمن السهل الوقوع فى خطأ المونوريل نتيجة للجهل بوجود عوامل أخرى تتدخل فى الموقف أو لتجاهلها . وإذا تسبب شيان فى نتيجة واحدة، فما أسهل اتخاذ أحدهما كسبب وحيد وتجاهل الآخر . ويشبه هذا الموقف حكاية الطفل الذى رأى أمه تطفى البطاطس بوضعها فى الزيت فوق النار، وعندما اختلى بنفسه حاول أن يطفى البطاطس ووضعها فى المقلاة فوق النار بدون الزيت فهو لم يدرك أن الزيت ضرورى . ويمثل خطأ المونوريل إحدى صور السذاجة فى التفكير مثل:

"نظام الضرائب جائر - فلنلغ نظام الضرائب".

"تريد [العمال] المزيد من المال - فلنقم بإضراب عن العمل".

"المدرسون هم المختصون بالتعليم - لا أحد يعرف عن التعليم أكثر من المدرسين".

"أساتذة الجامعة أنكباء - إذن أى أستاذ جامعى على حق فى كل آرائه".

إن خطأ المونوريل هو ببساطة الانتقال مباشرة من فكرة لفكرة بطريقة قاطعة مع تجاهل أية شروط أو قيود أو تحفظات أخرى، وبديهي أن أية شروط أو قيود لا ترد على البال سوف تسقط من الحساب، ولكن من العسير جدا إقناع من يقع فى مثل هذا الخطأ بأن هناك أشياء أخرى لابد أن تؤخذ فى الحساب، لأننا لا نستطيع إنكار وقوع خطأ الانتقال بالفعل من فكرة لأخرى . وإذا لم نعترض، فسنجد من يقول لنا: - على سبيل المثال - "عندما لا يكون هناك إتران بين مجموعة من الأجسام موضوعة على مستوى، فإن الأجسام الأثقل تقع أولا - هل يمكن إنكار ذلك؟".

(ب) الخطأ الكمي : Magnitude Mistake

الخطأ الكمي هو ثانى أنواع أخطاء التفكير الخمسة انتشارا . وهنا ينتقل العقل من فكرة إلى فكرة بطريقة تبدو صحيحة من حيث المفهوم ولكنها خاطئة من حيث الكم والمقدار:

- "لن نتجأ إلى شراء طعام لعشائنا يا أمى فقد اصطاد أبى سمكة".

انتقال الفكر من السمكة إلى الطعام صحيح تماماً . ولكن ماذا لو كانت السمكة التى اصطادها والد الطفل طولها عشرة سنتيمترات؟
- "إذا زدنا عدد أفراد الشرطة فى شوارع المدينة، فسنقضى على مشكلة جرائم الشوارع".

فكرة زيادة عدد أفراد الشرطة لمكافحة جرائم الشوارع، فكرة صحيحة، ولكن هل زيادة ثلاثة أفراد تكفى؟ ربما اقتضت الحاجة مضاعفة عدد أفراد قوة الشرطة فى المدينة.

وهذه التفسيرات يمكنها أن تتجح- لو كانت الأسباب الواردة بها حدثت بالقدر الكافى، ولكنها فى الحقيقة لا تبلغ مثل هذا المقدار المؤثر، إذ أن الملاحظ فى كل تلك الافتراضات أن التأثير صحيح ولكن قدره ومقداره كانا خطأ.

ويجى التفكير الأطفال بالأخطاء الكمية، فى تصميم رسمه طفل لفكرة مبتكرة لبناء المنازل بأسلوب سريع، يتصور رجلاً يقف فوق سطح المبنى ويده مغناطيس يجذب به أحجار البناء الممغنطة من فوق سيارة تقف تحت المبنى . وفى تصميم رسمه طفل آخر آلة سريعة لقطف التفاح، تصور وجود مغناطيس كهربى تحت شجرة التفاح وقطعة معدنية تثبت بكل تفاحة، وعندما يمر التيار الكهربى يجذب التفاح بالمغناطيس فيسقط على الأرض.

ويشبه الخطأ الكمى أن يبدأ رجل مسيرة على الأقدام من القاهرة إلى الإسكندرية (مثلاً)، وعندما تناقشه، فإنه يشير إلى لافته على الطريق تؤكد أنه على الطريق الصحيح.

ويتضاءل احتمال الوقوع فى الخطأ الكمى جداً عندما نتعامل مع مواضيع لدينا فيها خبرة عملية، فالنجار - مثلاً - يعرف من نظرة واحدة إن كانت قطعة خشب ستحمل وزنه إذا وقف فوقها أم لا . ومن الناحية العكسية نرى أن الأطفال هم أكثر من يقع فى الخطأ الكمى لنقص خبرتهم، فأغلب تفكير الأطفال ينحصر فى جمع بعض الأفكار المسماة Named Ideas وهى أفكار مجردة.

وعادة يستوجب التفكير الحركة إلى الأمام وليس فقط وصف الموقف الراهن، أى أنه يتضمن جمع بعض الأفكار المسماة بطريقة لم تختبر عملياً من قبل، مما يجعل احتمال الوقوع فى الخطأ الكمى وارداً جداً، ولاسيما إن كان التفكير يخص أفكاراً مجردة مثل: الحب - السلطة - العدالة - التمرد - العقاب - الخوف - الجشع ...

ولو تناولنا على سبيل المثال الفكرة القائلة: "الحب أقوى من كل شيء"، فقد تبدو صحيحة، ولكن أى قدر من الحب يلزم لقهر الحياة فى غرفة واحدة بدون حمام ولا ماء ساخن فى الشتاء ومع زوج يفضل شرب الخمر على العمل؟ أو الفكرة القائلة: "اتبع نظاما غذائيا وسوف يقل وزنك". ربما، ولكن ما شكل هذا النظام الغذائى؟ ولأية مدة يستمر الفرد عليه؟ أو الفكرة القائلة: "العقاب هو أفضل طريقة لفرض القانون والنظام". ولكن أية جرعة من العقاب يجب تطبيقها.

ومما يذكر أن الإنسان اخترع العدد والقياس Measurement ليتعامل مع الأخطاء الكمية. ومن المؤكد أن عبارات مثل "ضعى ملء ملعقة شاي من الشامبو على ملء فنجان من الماء. هى أدق من "ضعى الشامبو فى الماء" ولهذا صنع الإنسان الأعداد ليقسم الأشياء ذات الاسم الواحد إلى "مقاسات" مختلفة، وهكذا يتم التمييز بين دجاجة وزنها كيلو جرام وبين أخرى وزنها كيلوجرامين تماما، كما نميز بسهولة بين فستان أزرق وفستان أحمر.

وباستخدام الأعداد والقياس، يمكن تقسيم فكرة مسماة إلى عدة أفكار أخرى مسماة. فالأم لن تكتفى بأن تقول للبائع "أعطنى دجاجة"، وتحشى أن يكون وزنها أكبر مما تريد، بل وتحدد طلبها قائلة: "أعطنى دجاجة زنة ٢ كيلو جرام". تماما مثلما يقول الرجل الجالس فى مقهى "أعطى قهوة" أو "أعطنى شايا" ولا يقول "أعطنى مشروبا". وإذا عدنا لمثال الطفل الذى بشر أمه بسمكة للعشاء دون استخدام القياس والعد فأية سمكة هى طعام، ولكن إذا كانت زنة السمكة التى اصطادها الوالد مائتى جرام، فسنستبعد فورا فكرة العشاء بتلك السمكة.

والمشكلة التى تواجهنا غالبا هى أننا كثيرا ما لا نجد وحدات للقياس أو حتى طرائق للقياس. فما وحدات قياس أشياء، مثل: الحرب، النظام، العدالة الاجتماعية، الجمال، فقدان الصبر، الحساسية للنقد، الملل، السعادة، أو مثالها؟ وقد بدأ حديثا ابتكار طرائق لقياس "درجات الألم" بحيث تمكن المقارنة بين تأثيرات العقاقير المضادة للألم.

وبالطبع يمكن استخدام الصفات لوصف المقادير ولكنها غالبا ليست أكثر من عبارات نسبية، مثل: "لا يمكنك حمل سمكة كبيرة فى قاربك الصغير". فهذه العبارة فقيرة جدا فى معناها، فماذا تعنى بالتحديد بـ "سمكة كبيرة"؟ وهل هى سمكة كبيرة بالنسبة لهذه المنطقة من البحر أم أنها سمكة قرش طولها عشرون قدما؟ ولو كان كل ما

تعنيه هو أنه ليس بإمكانك حمل سمكة أكبر من القارب فيه، فأنت لم تقل شيئا فى الواقع. إن الصفات تشير فقط إلى الأشياء الموصوفة ولكنها ليست وحدات قياس مستقلة بذاتها.

ومن السهل التعامل مع اختلافات الأحجام والقياسات إذا كانت الأشياء المختلفة فى الحجم مختلفة الأسماء أيضا، فالدجاجة تبيض بيضة دجاجة وليس بيضة نعامة. كما يمكن أيضا أن نصف أطوال الفسنتين النسائية بأنها: طويلة جدا - طويلة - قصيرة جدا، كما يمكن الكلام عن ارتفاعها بالبوصة عن الأرض أو عن الركبتين، أو ببساطة يمكن تصنيفها إلى طويلة ومتوسطة وقصيرة.

والمشكلة أن هناك أشياء ليس لها أسماء تختلف تبعا لاختلاف مقاديرها ودرجاتها، أشياء كالحب والعدالة والنقود لا نملك عنها إلا أفكارا بسيطة وبالتالى نقع باستمرار فى الخطأ الكمى كلما تعاملنا معها.

وكما أن لدينا كلمة واحدة للحب، فلدينا أيضا كلمة واحدة للعدالة وللقانون وهكذا يستوى الأمر بين طفل سرق تفاحة وسائق ارتكب مخالفة مرور وقاتل، فكلهم خالف "القانون" وكلهم يمثل أمام "العدالة". وهكذا تمتلئ المحاكم بالقضايا وتفسد حياة الناس بسبب "الخطأ الكمى"، حيث لم تجزأ فكرة "العدالة" لتجنب هذا الخلط. أما فى حالة "الحرب" فنحن أسعد حالا فبدلا من الفكرة القديمة حرب / لا حرب يكون لدينا درجات من التصعيد نحو الحرب: مرحلة التهديدات - مرحلة مناوشات الحدود - مرحلة تحرك القوات ... وهكذا. وسيكافئ هذا قولنا: وحدة حرب أو وحدتان أو ثلاث ... وهكذا. ولحسن الحظ يجنبنا هذا التدرج الطريقة القديمة للتفكير والتى تنقز دفعة واحدة إلى "الحرب الشاملة" بمجرد الحديث عن "مناوشات الحدود".

(ج) خطأ سوء التلاؤم : Misfit Mistake

على الفرد أن يتصور أنه بينما يسير فى الشارع، لمح مؤخرة رأس شخص يعرفه جيدا يرتدى بذلة كثيرا ما رآه بها، فأسرع الخطى ليقترّب منه، ولكن عندما نظر فى وجهه تفاجأ بأنه أمام شخص غريب عنه.

وثمة سمكة صغيرة تعيش فى وفاق وسلام مع سمكة ضخمة، فهى تتغذى على الكائنات المتطفلة الملتصقة بزعانف صديقتها الضخمة وقشورها، كما أن السمكة الضخمة تفتح فمها للصغيرة حتى تدخله وتنظف لها أسنانها دون أن تطبق عليها فمها

وتبتلعها. ولكن هناك سمكة أخرى صغيرة ومأكرة تقلد زميلاتها صديقة السمكة الضخمة، غير أنها تخدعها لتلتهم قطعاً من زعانفها.

فى المثالين السابقين نرى أن شيئاً ما يبدو لنا مألوفاً ولكنه فى الحقيقة شئ مختلف، وهذا هو "خطأ التلاؤم" حيث لا تلائم الفكرة التى نعرفها عن شئ ما، ما هو عليه فى الواقع. وعندما نتعرف على الأشياء عادة لا نتمهل حتى نقارن بين قائمة لمواصفات الشئ الذى نبحث عنه والشئ الذى نراه، وإنما نقفز بأسرع ما يمكن لنتيجة. وربما لو تمهل الفرد قليلاً لملاحظة المزيد من الملامح لغير رأيه، فربما لاحظ - مثلاً - أن الرجل الذى ظن أنه صديقه ويسير أمامه فى الشارع، يضع عدة خواتم فى أصابعه بينما يعرف عن صديقه أنه لا يضع خواتم.

وكما أوضحنا: نحن نقفز دائماً إلى نتائج مبنية على مشاهداتنا الناقصة فنقع فى خطأ: سوء الملازمة، فإذا أسس المرء استنتاجه على المعلومات المتاحة لديه، فإن استنتاجه يكون صحيحاً بالنسبة للظروف المحيطة فى ذلك الحين. أما إذا أتى شخص آخر بمعلومات جديدة فربما وجب علينا أن نغير الفكرة الأولى، وإلا وقعنا فى خطأ: سوء الملازمة.

من المهم ألا تفوتنا ملاحظة أن درجة عدم الملازمة بين المعلومات المتاحة والفكرة لا يحدد حجم الخطأ، فلا فرق بين أن يشبه الغريب الذى يظنه الإنسان أنه صديقه فى صفة واحدة أو فى عشرين صفة، ففى كلتا الحالتين يكون قد وقع فى خطأ سوء الملازمة. وربما كنا أكثر فهماً وتسامحاً تجاه هذا التعرف الخطأ إن كانت نقاط التشابه كثيرة، ولكن عملياً الخطأ هو الخطأ.

ولو تناولنا نظرية نيوتن القديمة بشأن الكون، لوجدناها تتسم بمقدار ضئيل من عدم الملازمة مع الحقيقة. وجاء آينشتاين بعد ذلك بنظريته التى توافقت بشكل أفضل قليلاً مع المشاهدات. ومع ذلك، اختلفت تماماً النتائج المترتبة على كل من الفكرتين، فمن بطن نظرية آينشتاين خرجت الطاقة الذرية.

وليس بالضرورة أن نظرية ما تلائم الواقع بنسبة ٩٥% هى أصح من نظرية تلائمه بنسبة ٧٠%. فربما كانت كل منهما مفيدة بدورها فى مواقف محددة، ولكن كليهما تحتاج التعديل والاستكمال.

ويستخدم العقل أنماطاً محددة للتعرف على المواقف التى تواجهه، ولا بد له من مقارنة الموقف بالأنماط الجاهزة لديه، لأنه لا يمكنه ملاحظة واستيعاب كل ما يمكن

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكتشاف
ملاحظته. وتعتمد سرعة وكفاءة تعرف المواقف على سرعة استرجاع الأنماط الملائمة
والقفز إلى النتائج اعتمادا على القدر القليل المتاح من الملاحظات، وهذا بدلا من
الفحص المتأنى المنظم ومحاولة استيعاب كل التفاصيل.

وكلما كان النمط مألوفا زادت سرعة قفزة التعرف، وأيضا تزداد معها
احتمالات الخطأ. وكمثال، نرى أن أى شخص لديه آراء سياسية قوية يقع مرة بعد مرة
فى خطأ سوء الملاءمة، فيقفز إلى نتائج لا تلائم الوقائع القائمة.
(د) خطأ الغرور : (حتما ولا بد) :

على عكس كل الأخطاء الأخرى، فهذا الخطأ متوقع حدوثه فى المستقبل وليس
فى الحاضر أو الماضى. ولا يقع هذا الخطأ فى الفكرة ذاتها ولكن فى الأسلوب الذى
ينتهجه صاحب الفكرة فيعرقل به تطورها.

وربما لا نجد أى خطأ فى أسلوب تجميع المعلومات معا للوصول إلى نتيجة
ما، إلا أن الخطأ يكمن فى الغرور الذى يسيطر على صاحب الفكرة فيجمد النتيجة
ويوقف تطوير الفكرة.

فمن شأن الغرور أن يحول دون تطوير الأفكار وتحسينها، فالغرور يؤدي
بصاحبه إلى التوقف عند نقطة ما ويزعم أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان فى تفكيره.
والواقع، أن الظروف تتغير ولا بد للأفكار أن تواكب هذا التغير فتتطور، ومشكلة
الإنسان ليست فى التكنولوجيا والاختراعات، بقدر ما هى فى جمود الأفكار التى ما
زالت تتحكم فى تكنولوجيا هذا القرن، فما زلنا نعتقد بأنه كلما كانت الطائرة أضخم
وأسرع، كانت أفضل. وبنفس العقلية، ما زلنا نتعامل مع الصراعات بأفكار القرن
العشرين ولكن بأسلحة القرن الحادى والعشرين.

وحتى إذا لم يطرأ أى تغير على الظروف، فإن أية فكرة بعينها لا تحمل معها
أفضل طريقة لاستخدام المعلومات المتاحة ويرجع ذلك إلى الطريقة التى يعمل بها
المخ. إن الفكرة التى هى عبارة عن معلومات وردت إلى العقل على دفعات متتابعة
زمنيا تتحسن المرة تلو الأخرى، نتيجة إعادة ترتيبها بداخل العقل وتقرب بالتدريج من
الاستخدام الأمثل لها، وبالتالي فحتى إن لم تتغير الظروف فإن الغرور يوقف تطور
الأفكار.

بالإضافة إلى تجميد تطور الفكرة، فإن الخطأ من نوع "حتما ولا بد" يغلق الباب
أمام الأفكار البديلة. ولا تستبعد تلك الأفكار البديلة لأنها غير ملائمة، وإنما فقط لأن

الفكرة التي يحرسها الغرور تبدو لصاحبها ملائمة بما فيه الكفاية. وحتى لو بدت البدائل غير ملائمة في الوقت الحالي فربما تطورت إلى أفكار رائعة فيما بعد لولا أن خطأ الغرور - على طريقة "حتما ولا بد" - يغلق الباب أمام أية وجهة نظر جديدة لم تولد بعد. ولا ينتهى الأمر عند مجرد نبذ أى جهد لمحاولة توليد وجهات نظر جديدة، بل ويتمادى إلى حد تجاهل تلك التي تولد منها بالصدفة.

لا ينشأ خطأ "حتما ولا بد" فقط من طريقة تداول العقل للمعلومات، وإنما أيضا بسبب أدوات التفكير التقليدي، ولا سيما نظام نعم / لا والذي يقبل أو يرفض بجمود تام. أما من الناحية العملية، فيرتبط خطأ "حتما ولا بد" بالغرور - الذى يصاحبه دائما - أى بالاعتداد بالشخصية والتعود على التفكير بطريقة معينة.

(هـ) خطأ الصور المنقوصة : Jigsaw

خطأ الصور المنقوصة أو خطأ الاختيار Selection mistake يقع فيه المرء إذا وضع فى اعتباره جزء فقط من موقف ما واستخلص منه النتائج ثم طبقها على الموقف برمته. مثلا، قد يتعاطف أصدقاء الأسرة مع زوجة هجرها زوجها وينعتونه بالخسة، وربما فاتهم أن تلك الزوجة المشاكسة هي التي دفعته لذلك.

وفى حالة خطأ "الصورة المنقوصة"، فإن النتيجة تتماشى تماما مع نقطة البداية. وربما استدل من يرى صورة شرطى يضرب رجلا بعصا على وحشية رجال الشرطة، ولكن ربما لو أدركت الكاميرا لقطة سابقة لرأينا أن الرجل كان مسلحا بسكين أو شك أن يهاجم بها الشرطى، وربما استحال إدراك تلك المعلومة الناقصة من الصورة المتاحة.

* الصورة الكاملة :

من السهل أن نتعرف على خطأ "الصورة المنقوصة"، إذا كنا نعرف شكل الصورة الكاملة. أما إن لم تكن نعرفه فكيف لنا أن ننتبه إلى أن هناك جزء ناقصا من الصورة؟

فقط إذا دفعنا أسباب خاصة للشك فى وجود أجزاء ناقصة من الصورة، كان نشك فى الشخص الذى يعرض علينا الأمر، وحتى فى وجود هذا الشك، فليس هناك ما يدلنا على مكان الصورة الكاملة. وفى مثل هذه الحالة أماننا عدة اختيارات:

- أن نرفض النتيجة المقدمة إلينا لأننا نقنع - بصورة ما - بأنها مبنية على معلومات ناقصة.

- أن نرفض النتيجة المقدمة إلينا لأنها لا تعجبنا، ومن ثم ندعى أنها بنيت على معلومات ناقصة.
- أن نقبل النتيجة مع بعض التحفظات ثم نستمر في البحث عن "الصورة الكاملة".
- أن نقبل النتيجة لأنها تعجبنا ونقرر أن الصورة التي قدمت إلينا كاملة.
- أن ننكر وجود أية أجزاء ناقصة من الصورة ونقرر أن الصورة التي لدينا كاملة لأننا لم نجد أية أجزاء ناقصة.

*** الاختيار : Selection**

تقوم أية دعاية سياسية أو أيديولوجية على خطأ "الصورة الناقصة". وربما صح أن نطلق على هذا النوع من الخطأ "خطأ الاختيار"، لأنه يبنى على انتقاء ما يدعم الرأي الذي يدافع عنه صاحبه دون النظر لأية جوانب أخرى من "الصورة الكاملة". وهذا بالضبط ما يفعله التجار والمشتغلون بالدعاية والتسويق. إنهم يختارون المزايا ويبرزونها ويتجاهلون الجوانب الأخرى. ولحسن الحظ أن فن بيع الأفكار لم يتطور بالدرجة التي تطور بها فن بيع مساحيق الغسيل. وكمثال على خطأ الاختيار عند المقارنة بين النظم السياسية، أننا قد ننظر إلى ثراء الرأسمالي ونقارنه بفقر العامل ولكننا نتجاهل كفاية الاقتصاد والإنتاجية، أو ربما نظرنا لانعدام الفوارق بين الطبقات في نظام اشتراكي وفاتنا ملاحظة نقص الحرية الفردية في ظله. وإذا نظر شخص آخر لديه اقتناعات رأسمالية، فسيرى وفرة الإنتاج في بلد رأسمالي وستقوته ملاحظة أن الفقر أو الخوف من الفقر هو الوقود الدافع لهذا الإنتاج الوفير. والخلاصة، أنه من أيسر الأمور أن نختار النتائج التي نرغب في إثباتها ثم ننقى ونقص من "الصورة الكاملة" كل ما يؤدي إلى تلك النتائج ونتجاهل بقية الصورة.

*** مساحة الانتباه المحدودة :**

ليس الوقوع في خطأ "الصورة الناقصة" أمراً حتمياً، فكل ما في الأمر أن صاحبه يحصر انتباهه في دائرة يصطنعها لنفسه وتحتصر فيها كل أفكاره واستنتاجاته. هل تحديد عدد الدقائق اللازمة لسلق بيضة تدخل فيه اعتبارات مثل إن كانت البيضة محفوظة في ثلاجة أو أن الفرد يقيم في منتجع فوق جبل مرتفع؟ [يغلى الماء في الأماكن المرتفعة عن سطح البحر في درجة أقل]. هل العدالة الاجتماعية تدخل في اعتبارها معدل النمو الاقتصادي؟ هل الفقر يأتي نتيجة لظروف الأمس أم مقارنات اليوم أم احتمالات الغد؟ عل المرء دائماً أن يحدد مساحة انتباه يفكر بداخلها وغالباً ما تمتد

هذه المساحة وفقاً للاهتمام الشخصي. ولا ينشأ خطأ "الصورة الناقصة" لأن المرء يرسم حدوداً يفكر بداخلها، وإنما لأنه يطبق على "الكل" النتائج التي توصل إليها من خلال "الجزء" الذي حصر اهتمامه فيه. مثلاً، يمكن أن ينعت البعض نظام الطب المؤمم بالفشل، مستغلين على ذلك بقائمة الانتظار الطويلة التي تصل إلى سنين طويلة حتى يأتي دور المريض لإجراء جراحته، ولكن ماذا لو كان طبيعة المرض لا تفرض أن تكون الجراحة عاجلة؟

خلاصة القول :

أن أهم نقطة ينبغي وضعها في الاعتبار، هي أن أخطاء التفكير تأتي مباشرة من طريقة تعامل العقل مع المعلومات، فلا هي مسألة غياب شخصي ولا هي إهمال ولا قلة خبرة. وحتى أنكى الناس وأعلامهم تعليماً يقعون في الأخطاء نفسها التي يقع فيها العامة. ويمتوى في هذا السياسي المحنك والمزارع البسيط فكلاهما يقع في نفس أنواع الخطأ، ولا مفاجأة في هذا مادامت طريقة العقل في التعامل مع المعلومات هي التي تسبب تلك الأخطاء. ومما يبعث على الدهشة أن العمليات الذهنية التي تجعل من المخ أداة فعالة للتفكير هي ذاتها التي توقعه في الخطأ. ولا يمكن أن يتمتع الفرد بمزايا الطاقة الكهربائية دون أن يخاطر باحتمال التعرض للصدمة الكهربائية إذا مر التيار بجسمه. فإذا أدرك تلك الحقيقة البسيطة؛ فليس عليه إلا اتخاذ الاحتياطات العملية اللازمة لمنع أو تقليل احتمالات تلك المخاطر. وكذلك الحال مع أخطاء العقل، فعلياً أن نطور أدوات تفكير ومواقف ذهنية جديدة لتجنب أو تقليل احتمالات الخطأ.

تصحيح أخطاء التفكير :

يعد خطأ سواء الملاءمة Misfit Mistake، هو أسهل خطأ يمكن تصحيحه. فبمجرد الإشارة لشيء فات الفرد ملاحظته؛ فإنه يغير تفكيره فوراً ليستوعب المعلومة الجديدة.

ولكن ليست كل أخطاء سوء الملاءمة سهلة التصحيح، فلو كانت للإنسان حاجة عاطفية تدفعه للاحتفاظ بفكرته فليس من المحتمل أن يغيرها حتى إذا وجهنا انتباهه إلى أشياء فائته وتناقض تفسيره. فمثلاً: من العسير على من ينظر للأجانب المقيمين في مصر على أنهم يستزفون موارد الخدمات الاجتماعية في البلاد، أن يغير نظرته حتى لو وضعنا له كيف أن معظم هؤلاء الأجانب يعطون أكثر مما يأخذون بإسهاماتهم العملية.

ومن أصعب أخطاء التفكير تصحيحاً "خطأ المونوريل" لأن تتابع التفكير فيه يبدو منطقياً. ومن العسير أن يترشح الإنسان عن فكرة بدت له صحيحة منطقياً. ولا جدوى هنا من الإشارة إلى ضرورة إدخال أفكار أخرى في الاعتبار. وأفضل طريقة للتعامل مع تلك الحالات أن نتقبل الفكرة المغلوطة أولاً، ثم نواصل تتبع نتائجها، فبدلاً من أن نقول للطفل: "لا تضع القطعة في مجفف الغسالة"، نقول له - مثلاً - "إذا وضعت القطعة في مجفف الغسالة فسوف تموت القطعة". أما الطريقة البديلة لتصحيح خطأ المونوريل المنطقي، فهي التقليل من الغرور الذي يؤدي إلى فوات بعض الأفكار الصحيحة منطقياً. وسوف يتم مناقشة تلك الطريقة فيما بعد عند الحديث عن "خطأ الغرور".

أما "الخطأ الكمي"، فهو يقع بين "سوء الملاءمة" و "المونوريل" من حيث صعوبة تصحيحه. فأحياناً يسهل تقدير أحجام المواضيع دون ذكر كميات أو أرقام محددة، مثلاً إذا قال شخص: "بما أن الناس يخشون مرض السرطان فلو أعلن أن التدخين يسبب السرطان فلن يخذ أحد"، ولكن يمكن الرد بأن انخفاض نسبة المدخنين بعد إعلان هذا النبأ كان محدوداً، كما أن من توقفوا عن التدخين لم يستمروا كلهم في الإقلاع عنه. ومثال آخر أن يقول شخص، أن الناس يحبون مشاهدة العنف في التلفزيون، فنرد باقتراح إحصاء كم من الناس يفضلون - بالفعل - مشاهدة فقرات العنف على غيرها.

ولكن في أغلب الحالات لا تتوافر البيانات والإحصاءات الكافية مما يعسر تغاды الوقوع في الخطأ الكمي، لأن التفكير يتحول إلى مسألة تتابع منطقي. ويشبه هذا أن يقوم رجل برحلة من القاهرة إلى الإسكندرية على الأقدام، فإذا ناقشه أحد فإنه يشير بثقة إلى لافتة تؤكد أنه على الطريق الصحيح قائلاً: "هل تتكر ذلك؟" فهل تتكر أنه على "الطريق الصحيح"؟

ومن المنطقي أن شيئاً من التمرد وعدم الرضا قد يؤدي إلى الثورة، ولكن ليس بالضرورة أن ينتهي كل تمرد أو عدم رضا إلى إشعال ثورة كبيرة. أن الدجاجة تبيض؛ ولكنها لا تبيض بيضة نعامة.

وللتغلب على الخطأ الكمي، يمكن - أحياناً - استخدام استراتيجية "بيضة النعامة" والتي نعني بها تسمية الأشياء بأسماء تختلف تبعاً لاختلاف أحجامها. إن مساحة من المياه على الأرض يمكن أن نسميها "بركة" أو "مستقع" أو "بحيرة" تبعاً

لحجمها . ولكن لابد أن توجد تلك الأسماء فى الذاكرة قبل إطلاقها على الأشياء ، وللأسف لا يمكن تصنيعها "حسب الطلب" . وأضف إلى الصعوبة السابقة أن العقل يفضل التعامل بنطرف عندما يتعامل مع أفكار مجردة مثل الحب أو التمرد . وهنا نرى مثلاً من الأيسر أن نصف شاباً بأنه "مجنون" يحب فتاة عن أن نستخدم تعبيرات أكثر اعتدالاً على درجات سلم الحب ، مثل : "منجذب إلى ٠٠٠" أو "مهتم بـ ٠٠٠" لو "متفق مع ٠٠٠" أو "أميل إلى ٠٠٠" ، فإن تلك العبارة تبدو ضعيفة باهتة فى نظر هذا المحب ، تماماً مثلما تبدو كلمة "تمرد" فاترة لآخرين يفضلون الحديث عن "ثورة" .

أما أصعب أخطاء التفكير تصحيحاً فهي "الغرور" أو خطأ "حتماً ولا بد" لأنه لا يعد فى حينه خطأ . وربما كانت الفكرة التى كونها المغرور صائبة ، ولكن الخطأ يبدأ فى الظهور عندما يتنبه المرء إلى ما قد يكون الغرور حجب عنه ، أو عندما يقارن بين فكرته الراهنة وما يمكن أن تتطور إليه لولا الغرور . ولكن من أصعب الأمور نقل هذا المفهوم إلى صاحب الموقف المغرور . فى خطأ "حتماً ولا بد" ليس الخطأ فى الفكرة ذاتها ، وإنما فى تثبيت صاحبها برأيه أو محاولته فرضها على الآخرين بالقوة .

أما خطأ "الصورة الناقصة" أو "خطأ الاختيار" ، فأحياناً يصعب وأحياناً يسهل التعامل معه . والمعتاد أننا نحاول توجيه انتباه صاحب هذا الخطأ إلى أن وجهة نظره تغطى جزءاً من الموقف وليس كله . أما النتيجة ، فتتوقف على الكيفية التى تكونت بها وجهة النظر أو الفكرة . فإن كان صاحب الفكرة قد تعمد اختيار الجوانب الناقصة لغرض ما يستهدف التوصل إليه ، فإنه يتمسك بعناد برأيه ويصر على أن الجزئية التى يهتم بها هى أهم ما فى الموضوع حتى وإن كانت هناك وجهات نظر أخرى . أما إن كان قد كون وجهة النظر الناقصة هذه بحسن نية ، فسيكون على استعداد للاعتراف بمحدودية فكرته وربما حاول تغييرها وبناء وجهة نظر أفضل . وفى الحالات الصعبة ، من المهم أن تكون أول خطوة هى محاولة جعل الطرف الآخر يسلم بحقيقة أن كلا منكما ينظر إلى جزء مختلف من الموقف . وبمجرد بلوغ مثل هذا التسليم يتلاشى خطأ الصورة الناقصة ؛ لأن هذا الخطأ لا يقع إلا إذا نظر الإنسان لجزء من الموقف على أنه الكل .

ويمكن تلخيص الحديث السابق فى الآتى :

- تنشأ الأخطاء بسبب الطريقة التى يتعامل بها العقل مع المعلومات وليس بسبب الغباء أو الإهمال .

- نفس العمليات التي تجعل من المخ أداة فعالة للتفكير هي ذاتها التي تسبب أخطاء التفكير .

- خطأ "المونوريل" يتلخص في تسلسل التفكير مباشرة من فكرة إلى فكرة بطريقة مستقيمة متجاهلا أى عوامل خاصة .

- القياس هو الأداة التي ابتدعها العقل الإنسانى للتعامل مع الخطأ الكمي .

- خطأ سوء الملاءمة بين الأفكار والواقع سهل جدا الوقوع فيه؛ لأن العقل لا يلاحظ كل ما يمكن ملاحظته .

- خطأ الغرور "حتما ولا بد" هو خطأ يتعلق بالمستقبل وليس بالماضى ولا بالحاضر .

- خطأ الغرور "حتما ولا بد" يمكن اكتشافه فور المقارنة بين الفكرة الراهنة وما يمكن أن تصبح إليه إذا لم يمنع الغرور تطورها .

- "كباح الغرور" يكبح عملية التطور التي تتحسن بها الأفكار .

- خطأ الصورة الناقصة ينشأ عند تطبيق نتيجة قامت على جزء من الموقف وليس على كل الموقف .

وفيما يخص طرائق تصويب التفكير، تجدر الإشارة إلى أن الفرد فى أشد الحاجة لأن يكون على صواب، ولذلك يتمثل الهدف العملى من التفكير فى فهم العالم من حولنا والتعامل معه بطريقة ملائمة . وينبغى أن يكون التفكير صائبا فيما يصدر عنه من ردود أفعال أغلب الوقت . وفى حقيقة الأمر، فإن حاجة المرء النفسية لأن يكون على صواب تفوق الحاجة الواقعية المطلوبة لتصريف الأمور . وترتبط تلك الحاجة النفسية ارتباطا وثيقا بالـ "أنا"، وهى تبدو قائمة على ركيزتين هما:

* الخوف من المجهول والحاجة لفهمه للشعور بالأمان .

* اهتمام التعليم البالغ بأن ينمى لدى الطالب الحاجة لأن يكون على صواب .

وفيما يلى توضيح أبعاد الركيزتين السابقتين:

* فهم المجهول :

لننتصور إنساناً يعيش فى بيئة قاسية مليئة بالأعداء والمنافسين، أن أى شكل جديد يمر عليه يجعله إما أن يتجاهله أو أن يتعامل معه بالهجوم عليه أو بالفرار منه . وإلى أن يتكون التفسير المناسب الذى يتيح الفصل بين مثل هذه الخيارات، فإن المرء يشعر بالقلق ويفتقد الأمان . وربما بدا لنا - لأول وهلة - أن تجاهل الشئ الجديد هو

أفضل اختيار ما لم يرغب المرء على إبداء رد فعل إزاء هذا الشيء، ولكن ربما يكون الألوان قد فات غننذ. ومن الناحية العملية، من الصعب أن يتجاهل العقل شيئاً جديداً يظهر أمامه قبل أن يجد له تفسيراً. إن الحاجة للفهم هي أقوى بمراحل من مجرد الاستطلاع في ظروف آمنة وادعة.

وبمجرد تكوين التفسير، تنشأ حاجة ملحة جداً للتأكد من صحته.

• للتعليم والرغبة في أن تكون على صواب :

التعليم يزرع في الإنسان رغبة شديدة في أن يكون على صواب بل ربما كانت تلك الرغبة هي الدافع الأساسي للتعليم. وعندما يكون التلميذ على صواب، فإن الأستاذ يمتدحه ويرضى عنه ويضع علامة "صح" - صواب" أمام إجابته. وعلامة الصواب هذه مكافأة مباشرة وتؤدي الوظيفة نفسها التي تؤديها حبات القمح التي استخدمها سكينر [من رواد علم النفس السلوكي واشتهر بتجاربه على الحمام] لتدريب الحمام على عمل أشياء معقدة قد تصل إلى أن تدبر الحمامة مفاتيح بيانو صغير، وفور كل نغمة صائبة تتلقى الحمامة حبة قمح كمكافأة. وفي الحياة العملية يكون التصرف الصحيح مكافأة في حد ذاته فإن كان الفرد محامياً نشيطاً فإنه يكسب قضاياه، وإن كان مستثمراً نشيطاً فإنه يربح المزيد من المال. ولكن في المدرسة لا توجد مكافآت طبيعية، ولذلك يمنح التلميذ بدلاً منها مكافآت مصطنعة مثل علامة الصواب (صح) التي تعني أنه على حق. ولكن أن يكون المرء على صواب، هو شيء يختلف عن أن يكون فعالاً، لأن كونه على صواب لا يعني إلا أنه يتصرف طبقاً لفكرة سابقة مستقرة في الذاكرة.

وبجانب المكافأة على الصواب فهناك أيضاً العار والخجل من الخطأ فبدلاً من علامة (صح) للمجيدة، توضع علامة (X) خطأ المخزية. أن علامة "خطأ" تعني أن المدرس غير راض عن التلميذ وأن عليه أن يحاول من جديد وهو أمر يبعث على الملل والضجر. إن علامة "خطأ" تعني أنه غبي وأن للآخرين أن يشعروا بأنهم أعلى وأرقى منه. وباختصار، أن التعليم ينمي حالة رعب من الوقوع في الخطأ ويغذي في التلميذ رغبة عارمة في أن يكون على صواب.

كون الفرد على صواب ليس إلا شعوراً نظرياً، بمعنى: الفرد على صواب إذا كانت فكرته انعكاساً دقيقاً للواقع، ولكن عملياً الأمر يختلف جداً.

لو فكرنا في أن الماء الموضوع في إناء فوق النار سوف يغلي، وعلى الماء فعلاً فإننا على صواب. ولو فكرنا في ارتفاع قيمة الأسهم والمندات وحدث ذلك فقد

كانت فكرتنا صائبة . من الناحية العملية، التفكير يعنى أن نخرج بنتائج محددة قبل أن نتحقق منها، ولذلك فإننا نحتاج أن تكون أفكارنا عن سوق الأوراق المالية صائبة فنشتري الأسهم أو السندات قبل أن ترتفع قيمتها فعلا وإلا فلن نربح .

أما من الناحية العملية، فلا علاقة بين التفكير الصحيح والواقع . إن كون الفرد على صواب يعنى أنه يعتقد أنه على صواب وقت تفكيره، وطبعاً هذا يختلف تماماً عن مراجعة أفكاره على الواقع عندما يمكنه ذلك . أن الفرد يكون على صواب يعنى أن يشعر بأنه على صواب، لأن هذا الشعور هو الذى يبني عليه تصرفاته . وسواء أكان على صواب فعلاً أم كان مخطئاً، فلا يهم ما دام يحمل هذا الشعور الواثق بالصواب . عملياً، نحن لا نتصرف بناء على مطابقة أفكارنا للواقع وإنما بناء على شعور قوى بامتلاك الصواب سواء نطابق هذا التفكير الواقع أم لا .

وقد أوضح الحديث السابق أخطاء أساسية فى التفكير، ولكن: هل لو انصب كل اهتمام المرء على تجنب أخطاء التفكير تكون تلك أفضل طريقة لامتلاك صواب التفكير؟ نظرياً، يبدو الأمر كذلك، ولكن عملياً الأمر يختلف، فيمكن أن يشعر إنسان بأنه على صواب مطلق حتى ولو ارتكب أبشع الأخطاء . ولا أحد يعتمد الوقوع فى الخطأ وكل ما فى الأمر أن المرء يقع فى الخطأ لأنه يشعر بأنه على صواب فى حينه، وربما تبين له فيما بعد أنه كان على خطأ أو ربما وجه شخص آخر انتباهه للخطأ فى حينه ولكنه لم ينصت . إن تجنب كل أخطاء التفكير لا يجعل المرء يشعر بأنه على صواب ما دام ذلك لم يمنعه من الوقوع فى الخطأ . ومن الناحية العملية، هذا الشعور بالصواب هو شئ ملموس ومحدد أكثر من مجرد تلافى الوقوع فى الخطأ فى الفكر، أو المقارنة بينه وبين الواقع .

* أربع طرائق للصواب :

يناقش الحديث التالى أربع طرائق يكون بها المرء على صواب . ويستخدم العقل البشرى واحدة من هذه الطرائق "ليعرف" بها ما إذا كان على درجة من "الصواب" تتيج له أن يتحرك ويعمل أو أن يفرض أفكاره على الآخرين ويدافع عنها .

(١) الصواب الانطباعى :

تتضمن الصحف السياسية مقالات تؤيد وجهة نظر معينة، ومقالات أخرى تنتصر لرأى مخالف تماماً . والعجيب فى الأمر أن كل مناقشة تبدو صحيحة ومقنعة . فالتفكير منظم متسلسل، والأدلة تتوالى لتدعيم وجهة النظر المعروضة، لذلك تبدو المقالة

مترابطة منطقياً. ولكن قد يفاجأ الفرد قرب نهاية المقال بأن كل المناقشة تستند إلى زعم بأن حكومة معينة تتصرف بدافع من التزلم لأبى بعمل شئ ما.

ومما يذكر أن كلمات المديح والإطراء كلمات طيبة لها قيمتها ويتقبلها كل الناس ويتداولونها. ولقد جرت العادة منذ زمن بعيد على التعبير عن ذلك بكلمات مثل: جيد - صحيح - مناسب - ينبغي عمله ... والاستجابة لمثل هذه الكلمات هي استجابة عاطفية، لأنها تستعمل في الأصل ككسولات عاطفية. ولذلك، فإن أية مناقشة طويلة بكل ما فيها من منطق ومعلومات، ليست إلا وسيلة تتيح الانتقال من كبسولة عاطفية لأخرى بهدف إحداث تأثير عاطفى معين. ومن بين مثل هذه الكلمات الطيبة:

الكرامة.

الأمانة.

الشجاعة.

العدالة.

التقاليد.

الصلابة.

الحزم.

المرونة.

المسئولية.

... إلى آخر تلك القائمة، وتستند قيمة أية مناقشة على ما تضمنته من مثل تلك الكلمات. أنها كلمات محببة إلى النفس حتى أن المناقشة بأكملها قد تبدو ناجحة وصائبة بقدر ما يكون فيها من تأثير لمثل هذه الكلمات، ومن السهل اختبار ذلك بأن نجرب استخدام كلمات تحمل معانى الرفض أو النفور، فنلاحظ أن المناقشة تنهار أمام أعيننا. يمكننا أن نقول "لا" لتقاليد الماضى ونسميها رجعية، ويمكننا أن نرفض للشجاعة بوصفها تهورا. ولو استخدمت تلك الكلمات المضادة بنجاح، فسندرى أن الأفكار المطروحة تفقد صحتها فجأة برغم أن ما فيها من منطق ومعلومات لم تمس.

وعلى الجانب المضاد للكلمات الطيبة "الحلوة"، هناك كلمات أخرى لها طعم "لاذع" مرير. ومع ذلك فالمسألة واحدة، فلو أننا أدخلنا مثل هذه الكلمات البغيضة على فكرة تعن لنا عن شئ ما، فسنجد أننا نبغض هذا الشئ على النحو الذى يستحق.

ومن بين الكلمات من هذا القبيل:

• ضعيف

• منحل

• متردد

• خبيث

• مخادع

• انتهازى

• عدواني

من الجائز تماما أن نستخدم كلمات تعمل كمفاتيح تطلق المشاعر التى نحتاجها . فليس التفكير فى نهاية الأمر إلا انتقالا من فكرة لأخرى لبيان إمكانية النظر لشيء ما بطريقة مختلفة . وهكذا، فمن الجائز أن نستخدم طريقة "الكبسولات العاطفية" لإقناع شخص آخر بوجهة نظرنا . ولكن كثيرا ما يكون هذا الاقتناع العاطفى شعورا داخليا Gut Feeling صامتا دون كلمات، شعورا بأن شيئا ما جيد أو أنه ردىء .

وربما صح أن الغاية من التفكير هى الانتهاء لقرار محدد بشأن شيء ما . وأية مناقشة سياسية ترمى فى النهاية لإقناعنا، عاطفيا، بإعطاء صوتنا لمرشح دوننا عن منافسيه . وربما صدقت وجهة النظر القائلة بأنه مادام الإقناع العاطفى موجودا طوال الوقت، فإن التفكير العقلانى يعد زائدا عن الحاجة، ولكن يفوت وجهة النظر هذه أن الشعور الداخلى (الذى يبدو مباشرا) يولده اختيار كلمة ما أو خط تفكير معين . أن الشعور الداخلى العاطفى يمثل الطاقة الكامنة فى المسدس ولكن العقل هو اليد التى توجه هذا المسدس وتتحكم فيه . وكمثال، قد تنشر الصحف صورة فتاة رقيقة بريئة الملامح متهمه بجريمة قتل وتوحى لنا الملامح البريئة بأنها لا يمكن أن تقتل، ولكن تغييرا بسيطا فى "زاوية الكاميرا" قد يبين لنا نفس الفتاة مكررة خبيثة . ويمثل اللعب بالأفكار زاوية الكاميرا فهو الذى يجعل الصورة تثير الشعور العميق الذى يبنى عليه تحرك الإنسان .

من الصعب تصور أن الشعور الداخلى يمكن أن يكون دليلا على صحة فكرة، لأننا نتصور التفكير العقلانى موجودا دائما من أجل تحريرنا من سيطرة العواطف البدائية . ولكن إذا كان الإنسان يستخدم نتاج تفكيره، فما من وسيلة أفضل من انطباعاته

الداخلية للحكم على سلامة هذا التفكير، لأن هذه الانطباعات - هي التي تتحمل كل عواقب القرار المبني على التفكير . ان الاقتناع العاطفي هو دليل مقبول على صحة التفكير، وعملياً هو الآلية الأكثر شيوعاً لشعورنا بالثقة بأننا على صواب. ولكن للاقتناع العاطفي قيود وعيوب شديدة.

وتتمثل أهم عيوب الاقتناع العاطفي، في الآتي:

- أنه يعمل في أضيق نطاق زمني ممكن . فإذا لجأ الإنسان إلى استخدام الاقتناع العاطفي، فمن الصعب أن يتجاوز شيئاً لا يعجبه والذهاب إلى أبعد من ذلك في سبيل الاهتمام إلى شيء يبعث على الرضا . وهكذا فمن وجهة النظر العاطفية يصح أن يترك الشاب دراسته ويستمتع بوقته في الشواطئ والنوادي، ولو تجاوز هذا الشاب بتفكيره المدى الزمني القصير إلى ما ينتظره في المستقبل من نجاحات وإنجازات تقوم على ما يتلقاه في المدرسة، لاهتم بدراسته . ومن ثم، فإن الاقتناع العاطفي مقيد بمدى زمني قصير برغم أن الغاية من التفكير هي تحرير الإنسان من تسلط ردود الأفعال المباشرة والتفكير فيما يمكن أن يحدث لاحقاً .

- وقد تتصادم الفكرة التي يقتنع بها المرء عاطفياً بمصالح الآخرين، فيما أن لكل إنسان مشاعره وله الحق في أن يشعر بأنه على صواب، فإن التفكير العاطفي يبدو صائباً لمن يشعرون بنفس المشاعر تجاه نفس الشيء . ولكن من السخف محاولة فرض مشاعرنا على الآخرين بالقوة .

وعليه، الاقتناع العاطفي هو ما يحدث عندما تطلق سلسلة من الأفكار شحنة عاطفية نسعد بإطلاقها تجاه شيء معين . وقد يعزى ذلك إلى أن هذا الخط الفكري تطابق مع ما لدينا مسبقاً من مشاعر تجاه هذا الشيء، أو لأننا ببساطة نستمتع بإطلاق تلك الشحنات العاطفية المتناغمة مع خط التفكير .

(٢) الاقتناع المنطقي :

عندما تتلاحم أجزاء الواقعة، في وحدة متسقة دون أي تناقض، بغض النظر لمطابقتها للواقع، يتم قبول هذه الواقعة منطقياً .

في الصواب المنطقي، ما دامت كل القطع متسقة وما دامت كل قطعة في مكانها الصحيح، فلا بد من التوصل إلى الصورة النهائية كاملة . بمعنى، ليس علينا إلا أن نتأكد من أن كل خطوة نؤدبها صحيحة، لكي يكون تفكيرنا منطقياً، ولا مجال هنا لأي خطأ وإلا فسدت القضية برمتها . ويتميز التفكير المنطقي بأنه يتيح لنا التقدم خطوة

بخطوة، نحو نتائج لا يمكننا التحقق منها بصورة مباشرة، ولكننا نثق من صوابها ما دمنا على ثقة من سلوك الطريقة الصحيحة للتفكير. إنه يتيح الوصول للنتائج دون الحاجة لاتباع أسلوب المحاولة بالصواب والخطأ أو حتى عندما يستحيل هذا الأسلوب عمليا.

وفى الصواب المنطقي يتحول الانتباه تماما عن طبيعة القضية إلى الملاءمة بين أركانها. والأركان هنا هي الأفكار المسماة (المفاهيم) مثل: الحرية - حكومة - سمكة ... إلخ، والمهم هو الاتساق المنطقي بين الأفكار. ويقوم كل الميراث الفكرى للغرب على الصواب المنطقي، حيث يمثل الاتساق والترابط بيت القصيد، إنهم يفضلون تجميع مجموعة من أركان القضية أو المشكلة غير المنتظمة فى وحدة متسقة تماما بدلا من رص قطع منتظمة الشكل ولكن بينها فجوات. ولهذا السبب تنقطع العلاقة بين الفلسفة التقليدية والحياة اليومية، فمثلا، لن يحصل المرء إن كان له "روح متسامية على الجسد"، على تخفيض فى السعر عندما يذهب لشراء سمك. ويعنى هذا الاعتماد التام على التفكير المنطقي أن نهج هذه المدرسة يمثل انتصارا للشكل على المحتوى. ولو قرأ إنسان الفلسفة التقليدية، فسيكتشف فيها أبنية فكرية ضخمة معقدة مشيدة ببراعة، بحيث أن كل قطعة فيها تتسق بسلامة رائعة مع سائر القطع، وترتهن سلامة البناء كله بمدى الاتساق بين قطعه.

وبما أن الاتساق المنطقي يعنى أننا على صواب فى تفكيرنا، فيمكن أن يبنى المرء بنية فكرية شديدة الغرابة، المهم أن تكون صحيحة ومتسقة منطقيا. ولمريض البارانويا [Paranoia جنون العظمة والاضطهاد] صورة فكرية متسقة منطقيا تصور عالمه الخاص الذى يشعر منه أن كل الناس يضطهدونه. وتتطوى كل المذاهب الدينية - على اختلاف أنواعها - على صورة متسقة تماما عن معنى الحياة. والتنجيم الفلكى - Astrology هو صورة متسقة منطقيا عن التنجيم الفكرى. والسميماء Alchemy [الكيمياء السحرية التى تحاول تحويل المعادن إلى ذهب] هى صورة متسقة منطقيا للكيمياء.

ومع النظم المتسقة منطقيا وحينما نقطع صورة العالم [عالمنا - إدراكنا للعالم] فإن طريقة التقطيع تمثل رؤيتنا للعالم والتى تسمى بها الأشياء. ثم أننا لو جمعنا هذه القطع مع بعضها فسنجدها فجأة متسقة، وهذا يعنى أن تقسيمنا كان صحيحا وبالتالي كان التجميع كذلك، وبدل ذلك على أن تنسيقنا الفكرى سليم منطقيا. ولكنه ليس التنسيق

الفكرى الأوحد الصحيح، فهو لا يختلف فى صحته عن أى تنسيق فكرى آخر، يقطع الصورة بطريقته ثم يعيد تجميعها بشكل سليم. فالقطع فى تنسيقنا صحيحة فقط فى داخل هذا التنسيق، ولا يمكننا استخدام قطع لعبتنا محل قطع صورة مجزأة ومقطعة بشكل مختلف عن صورتنا.

من المهم هنا أن نتناسق القطع، وقد نعيد - ونحن نقوم بتقسيم الصورة إلى أجزاء - تحقيق سمة معينة فى الصورة، كأن نحتفظ مثلاً بشكل معين (صورة لوجه مثلاً) كاملاً على إحدى القطع. وبالمثل فقد يبدأ المرء عند بناء نظم منطقية بعدد محدد من الأفكار الثابتة التى تعد بمثابة الأفكار الأساسية التى تضاف حولها قطع أخرى مكملة بحيث يتسق الكل فى وحدة منطقية. وهكذا بنى "فرويد" تنسيقه الفكرى حول الفكرة المحورية القائلة بأن الجنس كان المحرك الأول للسلوك الإنسانى، وبما أن تفسير سلوك أغلب الناس بدافع الجنس لن يلقى منهم القبول، كان من الضروري أن يضيف فرويد قطعة جديدة لتنسيقه الفكرى اسمها "المقاومة"، وفكرة "المقاومة" تعنى أن رفض إنسان ما للتفسير الجنىسى لسلوكه هو على وجه التحديد الدليل على صحة هذا التفسير. وهذا يعنى أن التفسير لو كان مقبولاً فهو صحيح، ولو كان مرفوضاً فهو صحيح أيضاً. وبنفس هذه الطريقة تنشأ الأساطير والخرافات التى تتسم بالاتساق المنطقى. ولا يعنى هذا أن تلك "الأساطير" على خطأ بالضرورة وإنما يعنى ببساطة أن العقل البشرى يمكنه أن يبنى بآلية الصواب المنطقى خرافات وأساطير لا تخترق سواء أكانت صواباً أم خطأ.

إن تكوين صورة كاملة من قطع متسقة، هو أفضل أسس التفكير الإنسانى. ويبدأ هذا التفكير بأن تتكون بالتدرج انطباعات وأفكار تولد من الخبرة المشتركة للإنسان، وهذه أفكار لها أسماء، مثل: الطعام والألم والسيطرة والحب. وعندما يحاول العقل التنسيق بين هذه القطع الجاهزة فهو يحركها كيفما يشاء بطرائق مختلفة، بل قد يلجأ إلى إضافة قطع فكرية جديدة للربط بينها فى وحدة واحدة ليحاول أن يجعلها متكاملة.

أما خطورة هذا النوع من التفكير، فهى أن التنسيق المنطقى الجيد لا يبرهن على صحة تلك الأفكار، والأهم أن اختيار الفكرة الأساسية الأولى يحدد كل النسق الفكرى. وكمثال، فقد اختارت الفلسفة الغربية "الذات" ego كفكرة أساسية ثم ابتدعت مفاهيم مثل الثواب / العقاب، الفضيلة / الخطيئة لتوجيه تلك "الذات". أما الفلسفة

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكشاف

الشرقية فاخترت "الطبيعة" كنقطة بداية. وهكذا، لم تزد "الذات" عن كونها نقطة فى محيط هائل اسمه "الطبيعة". وهكذا، لم تحتج الفلسفة الشرقية لأساليب الجذب والدفع لتوجيه "الذات"، بل اتجهت لمحاولة التناغم مع الطبيعة.

وفى علم النفس نجد فكرة "الذاكرة" التى تملئها التجربة المشتركة للبشر، والتى تعد بمثابة مخزن للمعلومات التى جمعناها. وما دام هناك مخزن للذاكرة فلا بد من معالج للبيانات Processor يستخدم تلك الذاكرة وسنطلق على تلك العملية اسم "استدعاء". غير أن مثل هذا النظام المرتب من شأنه أن يحول دون النظر للعقل كنظام معلوماتى مختلف للغاية.

وهناك أفكار أخرى مستمدة من الخبرة المشتركة للبشر وتتعارض مع علم النفس، ومن بينها فكرة "الدافع" لأنها تقترح شيئا يحدث قبل التصرف بينما هو قد يحدث بعد أن يتقرر التصرف فى العقل.

ويحدد اختيار شكل قطعة من الصورة شكل القطع الأخرى المجاورة لها. ولكن قد يقع المرء فى الخطأ ويتعرض للمتاعب إذا جمع عدة قطع متناسبة فى وحدة مترابطة ولكنها تعطى إجابة خاطئة.

وبعامة، يعد التفكير المنطقى أقوى وأفضل أساليب "الصواب". وبرغم أن هذا الأسلوب هو وراء كل إنجازات البشرية، فإنه ينطوى على بعض المخاطر، منها على سبيل المثال الآتى:

* لا يبنى هذا النوع من التفكير على صحة الأفكار الأساسية وسلامتها، بل على خلوها من التناقضات فيما بينها (حسن التلاؤم). وربما بدت أفكار غير صحيحة على أنها صائبة متسقة مع بنية فكرى منطقى، وكمثال لذلك نجد أن بعض الأمراض تسببها زيادة الدم، ويدفعنا التفكير - المنطقى - هنا إلى علاجها بفصد الدم!! وتلك عملية انتشر استخدامها حتى وقت قريب.

* مهما بدا التابع المنطقى سليما، فلن تكون النتائج المنطقية أكثر ملاءمة من الأفكار التى بدأ منها.

* يمكن لكل من يمتلك المهارة الكافية البرهنة على أى شئ تقريبا بمجرد اختبار عدة أفكار أساسية وتنسيقها معا بطريقة منطقية. وعادة لا تكون المجادلات السياسية سوى أبنية منطقية مكونة من أفكار منتقاة - مشكوك فى صحتها - ولكنها متسقة مع بعضها بصورة منطقية.

• أن الإحكام الرائع الذى يبدو عليه بناء منطقى يعنى أن أية فكرة أساسية خطأ فى أرضية هذا البناء قد تؤثر على شكله . وكمثال على ذلك، تأثير مفهوم الخطيئة والشعور بالذنب على علم النفس الغربى .

• الصواب المنطقى يولد الغرور والثقة العمياء فى الصحة المطلقة لنظم فكرى معين . وتدفع تلك الثقة العمياء صاحبها إلى فرض آرائه على الآخرين . والصواب المنطقى حبيس نسق فكرى مختار مكون من أفكار أساسية مترابطة فيما بينها بطريقة صحيحة . وبما أن تلك الأفكار وذلك الصواب لا يمكن نقلهما إلى خارج ذلك النسق الفكرى، فإن الغرور يدفع صاحبه لمحاولة فرض النتائج على الآخرين .

• يتلخص الصواب المنطقى فى أن تكون على حق فى كل خطوة . ولكن الإصرار على الصواب فى كل خطوة عائق أساسى للإبداع، لأن الإبداع قد يتضمن الوقوع فى الخطأ عند مرحلة معينة فى سبيل بلوغ فكرة جديدة تماما .

وتتلخص خطورة الصواب المنطقى فى الغرور الناشئ عنه وفى تجاهل أن الملاءمة المنطقية تقتصر فقط على الأفكار الأساسية الخاصة المتعلقة بالموضوع المطروح ولا علاقة لها حتى بصحة تلك الأفكار .

(٣) الصواب الأوحد :

يقوم العالم كله على تأثير "الصواب الأوحد"، فعند أهل القرية البسطاء لا واحدة تضارع ملكة جمال القرية، لأنهم لا يستطيعون تصور من يمكن أن تكون أجمل منها . وهكذا أيضا حال العلماء، فإذا فكر أحدهم فى تفسير ما لظاهرة يدرسها، فإنه يؤمن تماما بأن تفسيره هو الأوحد . وهكذا تتحول نظرية علمية إلى فينوس القرية، ولكن العالم المفتون بنظريته لا يحدث نفسه بذلك، بل هو يقول بأن صواب تفسيره مرجعه الوحيد هو الطريقة التى يلائم بها كل الوقائع . ولكن الحقيقة هى أن هذا الصواب يعزى مباشرة إلى وحدانية التفسير .

أما إذا وجد تفسيران متنافسان لظاهرة واحدة فلن يذوق العالم طعم السعادة أو الراحة، حتى يستبعد أحدهما ويبقى تفسير واحد بلا منافس . ويسعى العالم للمزيد من المشاهدات والتجارب ليتمكن من ترجيح كفة أحد البديلين ويصل إلى الصواب الأوحد . والحقيقة - التى لا تسعد العلماء - هى إمكانية وجود تفسيرين بديلين [أو أكثر] متلائمين مع الوقائع بدرجة متساوية . وكما ذكرنا من قبل، فإن رؤية آينشتين للكون أضافت بديلا ثانيا لرؤية نيوتن التى كانت متربعة على عرش العلم . ولكن العلماء لم

ينوقوا طعم اليقين حتى أجريت تجربة فاصلة برهنت على أن نظرية أينشتاين هي وحدها التي تفسر كل الوقائع. ولدى علماء الكونيات الآن عدة نظريات بديلة تَعْلَلُ بداية الكون. وما زالوا يعملون جاهدين بحثاً عن معطيات جديدة تساعد على التوصل إلى النظرية الوحيدة لنشأة الكون.

فى مجال العلم - وخارج مجاله أيضا - يبرهن عدم إمكانية إيجاد تفسير بديل على أن التفسير الموجود هو الأوحده. وأى تفسير وحيد من نوعه ينظر له على أنه صائب.

قد يبدو من المسلم به أن أى تفسير سيكون هو الوحيد الصائب إذا لم تكن هناك أى تفسيرات أخرى للظاهرة ذاتها. ولكن من المزعج حقا أن فكرة تبدو بشكل مطلق صائبة بنفسها لا تكتسب صوابها إلا نتيجة عجز خيال الناس عن تصور فكرة بديلة لها. ولأن هذه الحقيقة البسيطة قد لا تسترعى الاهتمام لفرط وضوحها، فإن "دى يونو" يؤكد أهميتها وقد وضعها فى صورة قانون "يُونُو الثانى"، وهو: "لا يعدو البرهان على صحة فكرة ما عن كونه عجزا للخيال عن تصور فكرة بديلة لها".

ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن اليقين بصحة فكرة ما لا يولد فقط من ملائمة التفسير لكل الوقائع، وإنما هو يعزى أيضا إلى فقر الخيال - ومن هذه الملاحظة البسيطة نخرج بثلاث نتائج مثيرة للاهتمام.

- لا يكفى أن يمارس العلماء بحثهم عن المعطيات بكل الدقة والمنطق، فلا بد لهم أيضا من الخيال والإبداع، لأن الإبداع هو الذى يطرح التفسيرات البديلة التى تتحدى بقية التفسيرات السائدة وتفتح الباب للتجارب الجديدة.

- لا يمكن وصف أى تفسير علمى بأنه حقيقة مطلقة، لأنه يستحيل استبعاد التفسيرات البديلة لمجرد أن الفرد عجز - هو وغيره - عن التفكير فى البدائل.

- أكثر البشر ثقة فى آرائهم هم أفقرهم خيالا. ولو سمحنا لأنفسنا بصياغة منطوق القانون بشئ من الهجومية، فسنقول: "اليقين يولد من خيال ضعيف".

ومن شأن هذا المنطوق أن يحول انتباهنا من صلابة البرهان إلى ضعف الخيال وعجزه عن توليد البدائل.

ويقتضى إستكمال موضوع الصواب الأوحده التطرق إلى الموضوعات الفرعية

التالية:

• العلوم الناعمة : Soft Sciences

يمكن للباحث فى العلوم الهندسية Hard Sciences كالفيزياء والكيمياء، إجراء تجاربه لاختبار نظرياته . أما فى العلوم الناعمة (كعلم الاجتماع والانثربولوجيا وعلم النفس والعلوم السياسية والاقتصاد . . .)، فمن الصعب أو المستحيل التحقق بالتجربة من النظريات، وبدلا من التجربة، يعتمد الباحث على الملاحظة المنهجية . والمشكلة هنا أن النظرية التى نحاول التحقق منها بالملاحظة هى نفسها وليدة الملاحظة . أى أن النظرية تقودنا لتكرار ملاحظة نفس الأشياء، وبذلك يسير البحث فى حلقة مفرغة لا نرى فيها إلا ما نريد أن نراه . ومما يزيد من صعوبة المشكلة أن العلوم الناعمة تتعامل مع مجالات عملية تبحث عن حلول سريعة، كما فى السياسة والاقتصاد . والنتيجة أن القانون الثانى (دوبونو) يؤثر بشدة على التفكير فى تلك المجالات . وكثيرا ما يكون الدليل القاطع على صحة نظرية ليس إلا العجز عن التفكير فى بدائل أخرى تفسر الوقائع المعنية .

وللمستغل بالعلوم النظرية الحق فى طرح التفسير الوحيد الذى يملكه - فهو حق طبيعى لأى شخص . ولكن تبدأ المشاكل بعد أن يتلقى آخرون منه هذا التفسير ويفترضوا أنه أقامه على أسس علمية صارمة وليس على مجرد خيال فقير . وتكمن الخطورة بحدة عندما يتعلق صاحب الفكرة بها وكأنها قطعة منه، بدلا من أن يعرضها كفكرة أولية (فرض مبدئى حتى يحل محله تفسير أفضل)، ويدافع عن رأيه بشراسة رافضا أية بدائل .

• وخارج العالم أيضا :

ولا يبعث على الدهشة أن نجد خطأ الصواب الأوحد موجودا خارج دائرة العلم بعد أن وجدناه فى دائرة العلم الرائعة . وكلما زاد عدد التفسيرات، يمكننا أن نختار بسهولة أفضل واحد منها . وتأتى تلك البدائل إما جاهزة أو أن نفكر فيها بأنفسنا . فإن كنا غير قادرين عن التفكير فى البدائل فليس أمامنا إلا افتراض أن الطريقة التى نرى بها الأمور هى الطريقة الوحيدة الممكنة، وهذا هو ما حدث لعطيل وأرغمة على تصديق التعليل الوحيد الذى أمكنه تصوره وانتهى إلى خلق دينمونة .

ولسوء الحظ، لا يمكننا أن نعرف شيئا لا نعرفه بالفعل، وأسوأ من هذا أننا لن نصدق بسهولة أن هناك تفسيرات بديلة ممكنة ولكننا لم نتصورها . وربما كان أفضل حل أن نؤمن - إيماننا أعمى ودون دليل - بإمكانية وجود بدائل ومجالات اختيار أوسع،

حتى ولو كنا لا نستطيع تصورهما الآن . وعلى الأقل قد يدفعنا هذا "الأيمان الأعمى" إلى البحث عن بدائل جديدة أو يقلل من تشبثنا بالتفسير الوحيد الذى نمتلكه فى تلك اللحظة . أما الفائدة الأخرى، فهى تطور قدرتنا على توليد البدائل بأن نتعلم استخدام التفكير الجانبي .

* حدود الرؤية الواحدة (الصواب الأوحى) :

ويتم كل من الاقتناع العاطفى والمنطقى بأنه مبنى على الواقع . فالاقتناع العاطفى يعنى أن طريقة التفكير توافق هوى صاحبها . والاقتناع المنطقى هو التسلسل المنظم للأفكار واتساقها معاً . أما الرؤية الواحدة فلا صلة لها بالواقع الخارجى وإنما فقط تستند للفائدة العملية لفكرة، فكل منا لا يملك إلا أن يطبق التفسيرات التى يعرفها ولا يمكنه أن يقف متردداً لأنه يعرف أن هناك تفسيرات أفضل لم يبلغها تصوره بعد . وللرؤية الأحادية حدود وقيود شأنها شأن أساليب التفكير الصائب الأخرى، منها على سبيل المثال:

- أن ما يطرح كتفسير أولى غير مؤكد لا يعرف صاحبه سواء قد يتحول بسرعة إلى يقين أعمى، يبدو وكأنه يستند لأساس أصلب من مجرد فقر الخيال، لاسيما إن انتقلت الفكرة من صاحبها الأصلي إلى غيره، فمع كل نقلة من عقل إلى عقل يضاف إليها المزيد من صبغة اليقين المطلق .
- بما أن الإنسان يشعر بالطمأنينة إلى أنه على صواب، إذا صح تفسير واحد لموقف معين، فإنه قد يتمادى إلى حد نسب أية رؤية بديلة ليدعم شعوره بأنه على صواب . وهنا، ليست الرؤية الواحدة نتاج الخيال المحدود وإنما هى نتاج نسب البدائل . وقد يحاول الإنسان نسب الرؤى البديلة، حتى ولو كانت الوقائع القليلة المتاحة لغيره تتماشى مع التفسيرات البديلة بنفس درجة ملائمة رؤيته لمشاهداته هو .
- الشعور بأن تفسيراً واحداً فقط هو الممكن، حيث يدفع صاحبه لرفض أية تفسيرات بديلة والتى هى ببساطة وجهات نظر مختلفة لشيء واحد . ويشبه هذا الشعور القوى الكاذب إصرار شخص على أن زاوية النظر الوحيدة لمبنى هى أن تراه من الواجهة .

(٤) التعرف الصائب :

إن التشخيص / التعرف يعنى أن توليفة من الملامح يطلق عليها اسم "التعرف الصائب" .

وكما لا بد أن يوجد للمفتاح قفل يلائمه، فلا بد أن يحمل الطبيب فى ذهنه صورة للمرض . وتتكون تلك الصورة فى عقل الطبيب من دراسة المراجع الطبية ومشاهدة الحالات المرضية والخبرة العلمية والاختبارات المعملية . فإذا تعرف على المرض وشعر بالسعادة فذلك هو "التعرف الصائب" .

يكتسب التشخيص والتعرف أهمية بالغة لأنه أساس كل عمل، فكما يشخص الطبيب المرض حتى يحدد العلاج، ينبغى على أى إنسان أن يتعرف على ما يواجهه حتى يتصرف بطريقة ملائمة . أما إذا استعصى على الفرد التعرف على موقف ما، فإنه يسعى لفهمه بالنظر إليه من زوايا مختلفة، أو بتحليله لعناصر أبسط على أمل أن يلتقى فيها بشيء يفهمه . ويمكن القول ببساطة، أن الفهم هو التعرف .

وللمزيد من معرفة جوانب هذا الموضوع، نتطرق إلى دراسة الموضوعات الفرعية التالية:

• التعرف الفورى :

ومتلما يشخص الطبيب المبتدئ المرض بمراجعة قائمة من الموصفات يقارنها بما يراه فى مريضه، تتعرف طالبة علم النبات على عينة نباتية بمقارنتها بقائمة موصفات . أما الطبيب المتمرس فيحدد المرض بدقة واعتدالاً، فور دخوله غرفة المريض . وفى الحياة اليومية نتعرف على وجوه أصدقائنا فوراً دون الحاجة لمراجعة قائمة من الموصفات، أما إذا وصف للفرد شخصاً ليعرفه لشخص عليه أن يقابله، فلا بد أن يستعين بقائمة للموصفات، مثلاً: أنه أصلع وله أنف ضخمة وعينان زرقاوان لهما نظرة نفاذة وهكذا .

وعندما يتعذر التعرف الفورى على شئ ما، فإننا نحاول التعرف عليه على مراحل . وهكذا الحال عندما يلجأ الطبيب للاختبارات الطبية والمعملية، فليست هذه إلا محاولات لتوليد ملامح جديدة تقترح أو توحى لنا بأفكار مبتكرة أو تؤكد ما لدينا أو تنفيها أو ترجح إحداها .

وتنتهى المحاولات لفكرة ثلاث الملامح التى يجدها الفرد أمامه، ولكن هذا التعرف لا يبرهن بنفسه على صحة نفسه، وإنما يعنى أن الفرد وجد مجموعة من الملامح المعروفة لها اسم متداول، ثم يستخدم هذا الاسم والأفعال المترتبة عليه لأهدافه العملية .

كما يمكن أن يختار شخص غيره عدة ملامح أخرى مختلفة لنفس الموقف، وينتهى إلى نتيجة تخالف نتيجته، وفي حالة الطبيب الذى يشخص المرض بأنه "الحصبة" من نظرة واحدة ربما يشخص غيره الحالة على أنها "حمى قرمزية".

* الكفاية :

ويعنى التعرف الصائب أن الفرد لديه فى ذهنه عددا كافيا من المواصفات بدرجة تشعره بأنه على حق. وربما كان ينبغى التصرف بناء على تشخيصه (كما لو كان طبيبا أو زعيما سياسيا ٠٠٠) أو أنه يريد إقناع غيره بصحة تشخيصه. فإن كان هدفه هو إقناع الآخرين، فسيعرض عليهم قائمة الملامح المتطابقة بين الموقف وتشخيصه. فإن كان - مثلا - يهدف لوصف نظام سياسى بالشمولية، فسيضم قائمته أشياء مثل: تقييد حرية الصحافة - عدم وجود أحزاب معارضة - سجن المعارضين دون محاكمة - منع الانتقال بين المدن إلا بتصريحات من الشرطة ٠٠٠ وهكذا.

وتدخل بعض المواصفات فى صلب التشخيص، بينما لا يشكل بعضها الآخر إلا مؤشرات وقرائن تدل عليه بطريقة غير مباشرة. وفى حالة مرض، مثل "الحصبة" يدخل عزل فيروس الحصبة فى صلب تعريف مرض الحصبة أما وجود أعراض وعلامات للمرض مثل البقع الجلدية الحمراء أو الرشح فليست إلا قرائن.

ولو كتب الفرد قائمة بمواصفات التعريف ووجدها كلها مستوفاة فيحق له أن يتأكد من صحة تعرفه / تشخيصه. ولكن من الناحية العملية نكتفى باستيفاء بعض المواصفات ما دامت تكفى لإحداث الشعور بأننا على حق، وهذا هو "التعرف الصائب". وبسبب هذا الشعور، يمكن أيضا أن نقع فى خطأ "سوء الملاءمة" بين التعرف والوقائع.

* حدود التعرف الصائب :

وفى حالة التعرف الصائب، توجد عدة درجات للصواب: واثق - واثق جدا - على يقين - على يقين مطلق. وربما يشعر الفرد بالثقة المطلقة مرات، وربما يشعر بأن تعرفه ليس أكثر من تخمين مرات أخرى. وللتعرف الصائب أهمية عملية فائقة، لأن علينا فى بعض الأحيان أن نتصرف بسرعة كما قد يتعذر علينا معرفة المزيد من المعلومات فى أحيان أخرى (مثلا قد تجرى عملية نقل دم طارئة فى ساحة المعركة دون عمل تحليل واختبار فصيلة الدم). وهناك عدة قيود وحدود للتعرف الصائب، من أهمها ما يلى:

- يكاد الشعور بالصواب واليقين يتناسب عكسياً مع دقة التعرف، فمن يثق بشدة فى صحة رأيه لن يتعب نفسه بالبحث عن المزيد من الأدلة، وبالتالي يميل أكثر من غيره للوقوع فى الخطأ. أما المشتكك الحذر، فإنه يدقق ويتحرى ويبحث عن المزيد من الأدلة فيميل أكثر من غيره إلى جانب الصواب.
- حتى لو بنى الفرد شعوره بالتعرف الصائب على مطابقة عدد كبير من الملامح لمواصفات الواقع، فلا يوجد ضمان مطلق بأنه لو درس المزيد من الملامح فربما يغير رأيه أو تشخيصه تماماً.
- قد يختار الفرد ملاحظة الملامح التى تنتهى به إلى تشخيص معين، وربما تقع عين غيره على ملامح أخرى تدعم تشخيصاً يختلف عن تشخيصه. فربما كان النظام الذى يسميه شمولياً يسميه غيره ديمقراطياً. ويعد هذا الخطر على درجة من السوء إذا كان بوسع الفرد فحص الموقف بنفسه، حتى وإن تحلى بعقل محايد مفتوح. ويكاد يستحيل تجنب هذا الخطأ إن لم يطالع الفرد الموقف بنفسه ويعتمد على ما اختاره غيره ليقمه له من ملامح الموقف (مقال صحفى مثلاً).
- لا بد أن تكون أسماء أو أنماط التشخيص مختزنة لدى الفرد، وإلا عجز عن التعرف على شئ. أما إن كانت معلوماته محدودة، فسوف ينحصر تشخيصه فى واحدة منها. وكمثال: لو كان كل ما لدى الفرد عن اتجاهات البشر السياسية هو اليمين أو اليسار، فسوف يصنف كل من يقابله بأنه إما يمينى أو يسارى، فهل هذا تصنيف دقيق؟
- ينبغى على المرء أن يتأكد من أن الاسم / التشخيص الذى يطلق على شئ ما يعنى نفس الشئ للآخرين، فمثلاً "أوراق الغار" تستعمل فى الطهو فى القارة الأوروبية، ولكنها فى إنجلترا نباتات سامة جداً. وليس هذا بسبب اختلاف معدة الإنجليز عن سائر الأوروبيين، ولكن لأن "أوراق الغار" تطلق على نباتين مختلفين تماماً.
- حتى يتأكد الفرد من تشخيص، ينبغى أن يستبعد التشخيصات الأخرى القريبة منه. أما إن كان يجهل وجود تلك الاحتمالات البديلة (أو إن كانت لم تخطر على باله وقتها) فسيكون فى غاية الثقة بتشخيصه الذى قد يكون خطأ. ونلاحظ فى هذا السياق التشابه بين "خطأ التشخيص" و"خطأ الرؤية الواحدة".
- حتى لو كان الفرد صائباً فى تعرفه على الموقف، فلا يعنى هذا أكثر من أن الموقف الذى تعرف عليه يتفق مع المفاهيم والأسماء المألوفة لديه.

ولكن التعرف / التشخيص الصائب لا يبرهن على صواب المفاهيم الأساسية، وهكذا فلو كان لدى الفرد مفهوم اسمه "امبريالى" أو "هيبى" أو "شيوعى" أو "تقافى"، فسيكون بوسعه أن يستخدم تلك التعريفات بسهولة، ولكن هذا لا يقرر حقيقة ما تعنيه تلك التسميات. فإذا اختار أن يسمى كل زجاجة صلصة على أنها "سلاح خطر"، فسوف يكون على صواب كلما لمح زجاجة حمراء وتعرف عليها ووصفها بأنها "سلاح خطر". وعلى هذا الأساس ومن وجهة نظر "التعرف الصائب"، فالفرد على حق إذا جلس فى مطعم فوجده مليئا بالأسلحة الخطرة! ولكنه لن يبرهن بهذا "التعرف الصائب" على أن زجاجة صلصة الطماطم سلاح خطر.

خلاصة القول بالنسبة للحديث السابق يتمثل فى الآتى:

- بمجرد طرح أى تفسير تنشأ حاجة نفسية شديدة لتوكيد صحته.
- أن يكون الفرد على حق يساوى أن يشعر بأنه على حق، لأن هذا الشعور هو الذى يدفعه للعمل.
- فى الصواب المنطقى يتركز الاهتمام كله على درجة ملائمة الأفكار للواقع وينصرف تماما عن طبيعة تلك الأفكار.
- إن آلية الصواب المنطقى يمكنها بسهولة بناء أنساق فكرية لا يمكن اختراقها، سواء أكانت هذه صحيحة أم خاطئة.
- فى العلم - وأيضاً خارج مجال العلم - يبرهن العجز عن تصور تفسير بديل على صحة التفسير الوحيد المتاح، غير أن التبعية المزعجة لذلك هى أنه إن فات الفرد شئ، فلن يعرف أنه لا يعرف.
- التعرف الصائب مهم جداً، لأنه الأساس الذى ينطلق منه البشر للحركة فى الحياة العملية.

الفصل الثانى

التفكير فى علاقته ببعض الصناعات الإنسانية

* تمهيد

* التفكير وعلاقته بالمنطق

* التفكير وعلاقته بالاكشاف وحل المشكلات

* التفكير وعلاقته بالإبداع

* التفكير وعلاقته بالعبقريّة

* التفكير فى ضوء مقومات الحياة الإنسانية

إن كل ما يندرج تحت مظلة الحياة من أعمال جيدة أو سيئة، أو من ممارسات صحيحة أو خاطئة، وما يتبع تلك الأعمال والممارسات من تغيرات هادئة أو حادة، يدعو الإنسان إلى التفكير . وهذا التفكير قد يؤثر إيجاباً أو سلباً في نظرة الإنسان إلى الحياة وتوجهاته نحوها، وفقاً لقوة الأحداث التي يجب عليه أن يواجهها .

ومنطلق أن التفكير - كما قلنا من قبل - إنساني النزعة، لذلك لا يوجد إنسان لا يفكر، مهما كان موقعه الاجتماعي ومهما كانت طبيعة العمل الذي يقوم به، ومهما كانت أيديولوجيته أو انتماءاته السياسية، أو عرقه، أو لونه، . . . إلخ . الإنسان يفكر طالما كان عاقلاً، وبالطبع يستثني من ذلك البلهاء والمتخلفين والمجانين والمأفونين .

إذاً التفكير صفة مهمة من صفات الإنسان الطبيعي، وهذه الصفة ترتبط بغيرها من الصفات التي يمتلكها الإنسان . وبعامه، صفات الإنسان يمكن أن تكون هبات من الله له، كالذكاء والنبوغ والموهبة والإبداع، وقد تكون صفات يكتسبها الإنسان من الخبرات الحياتية ومن الأعمال التي يقوم بها . فعلى سبيل المثال، عندما يجتهد المتعلم، ويكون مثابراً وصبوراً ودؤوباً في دراسته، فإنه يكتسب صفة "النجاح وتحقيق التفوق"، رغم أن قدراته الذهنية قد لا تكون عالية بدرجة كبيرة . وفي المقابل، قد يمنح الله المتعلم قدراً كبيراً من الذكاء الفطري، ولكنه لا يستغله كما ينبغي وبدرجة صحيحة وكافية، ويهمل في دراسته، لذلك نلأ ما يحقق هذا المتعلم نجاحاً ملحوظاً، وتلتصق به صفة "الفشل وعدم القدرة على الإنجاز الدراسي" .

وبعامه، أن مختلف أنواع النشاطات التي يمارسها الإنسان، سواء أكانت تقنية، أم اقتصادية، أم اجتماعية، أم سياسية، أم علمية، أم فنية، أم دينية، أم تعليمية، يمكن أن تتداخل وتترابط سويًا بوشائج نسب متينة قوية الأساس، إذا قامت ولزمت على التفكير الصحيح لهذا الإنسان، وبذلك يكتسب الإنسان صفات إنسانية حميدة، لها مردوداتها الإيجابية رفيعة المستوى . فالتفكير - إذا - له علاقة واضحة وصريحة ومباشرة بالصفات الإنسانية التي يمتلكها الفرد أو يسيطر عليها، ومن المفروض - نظرياً - أن تكون هناك علاقات فعل ورد فعل ظاهرة وملموسة بين التفكير وصفات الإنسان .

وفي هذا الشأن، قد يقول قائل أن صفات الإنسان الشخصية، قد تؤثر سلباً في تفكيره . هذا صحيح بالنسبة للإنسان غير الطبيعي أو المتخلف ذهنياً، إذ من غير المعقول، أن نطلب من هذا الإنسان أن يكون نابغاً، أو موهوباً، أو مبدعاً، أيضاً قد يقول

قائل آخر، إن الظروف الحياتية الصعبة التي يواجهها الإنسان، قد تحول دون انطلاق تفكيره نحو الآفاق الأوسع والأرحب. وهذا صحيح - أيضاً - لأن تلك الظروف قد تكون من الأسباب المباشرة لواد إبداع الفرد في مهده، وفي حجب تفكيره النابغ للظهور. ولكن في ظل الظروف الطبيعية، وليس في حالات استثنائية، ترتبط صفات الإنسان بتفكيره، كما يرتبط تفكير الإنسان بصفاته، ولهذا السبب ظهرت أنماط عديدة من التفكير، مثل: التفكير المنطقي، والتفكير العلمي، والتفكير الإبداعي، ... إلخ.

وعلى الرغم من القابليات التي يمتلكها الفرد، والتي تساعد على تنمية تفكيره، فمن المهم بمكانة رعاية الفرد، من أجل: (١) اكتساب المعارف والمعلومات والمهارات والعادات، التي تشكل خلفيته العلمية التي تساعد على التفاعل مع ذاته، (٢) توضيح أهمية وضرورة البحث عن معلومات أبعد وأعمق من تلك التي يمتلكها، (٣) التفاعل مع البيئة بمفهومها الواسع (داخل المدرسة وخارجها) بكل ما فيها من متغيرات ومعطيات وأنشطة وظواهر.

وجدير بالذكر، تكمن قدرة الإنسان على التفكير، إذا استطاع حل مشكلاته وتلبية حاجاته: الاجتماعية والمادية والجسدية والنفسية، وبذلك يتحقق إترانه. وقد يحدث العكس تماماً إذا واجهت الإنسان مشكلة ما، وفشل في حلها، إذ في هذه الحالة قد يخبو تفكيره وتضعف آلياته الذهنية ويفتقر إلى مهارات الخلق والإبداع، ناهيك عن عجزه شبه الكامل عن تحقيق التكامل بين ما يمتلكه من معلومات.

إن القدرة على التفكير من خلال الصفات التي يمتلكها الإنسان، تجعله مفكراً جيداً، يمتلك عقلية عريضة وعميقة تساعد على التقصى عن المجهول والبحث عن المعرفة الجديدة، من أجل استخدامها الاستخدام الأمثل.

والعمليات التي تسهم في تنمية التفكير - وتسمى أحياناً بعمليات العلم لاستخدامها في البحث عن المعرفة وتوليدها - تتمثل في الآتى:

• الملاحظة :

وهي أكثر العمليات أهمية في التفكير، وتعنى أخذ الانطباعات الحسية عن الشئ أو الأشياء المعينة، حيث يستخدم المتعلمون حواسهم في وصف الأشياء أو الأحداث بدقة، وهذا يتطلب أن يكونوا أكثر انتباهاً وإدراكاً للمتغيرات، ليتعرفوا الأشياء بشكل أفضل. وليدركوا أوجه الاختلاف وأوجه التشابه في ما بينها. فالحواس بوابات

للملاحظة، بواسطتها يلاحظ المتعلمون الخصائص والصفات المختلفة للأشياء: الحجم والشكل واللون، والرائحة ودرجة الصوت . . إلخ.

* التصنيف :

يستطيع المتعلمون فى مرحلة التفكير الحدسى اختيار الأشياء والأجسام الحقيقية وفقاً لخاصية معينة كاللون أو الشكل أو الحجم، ويمكنهم استخدام خاصية واحدة فى كل مرة وفقاً لها، وفى مراحل لاحقة يمكن تصنيف الشئ الواحد فى أكثر من مجال أو مجموعة فى الوقت نفسه . وفى هذه المرحلة يمكن تصنيف الصور التى تمثل حيوانات مثلاً إلى ثلاث مجموعات: طيور، أسماك، ثدييات . . وذلك عند إعطاء الطلاب مجموعة من الصور التى تمثل حيوانات ويمكنهم تصنيفها إلى مجموعات أخرى بمبادرات منهم، وهكذا . . .

* القياس :

إن التفكير من منظور كمى يقودنا على إمكانية القياس، وهو يعنى المقابلة بين الأشياء . ومما يذكر، فى المرحلة الأساسية قد لا يستطيع المتعلمون مقارنة شئ بأداة قياس معيارية كالمتر أو عصا الiardة، وبدلاً من ذلك يقارنون بين جسمين لتحديد أيهما أطول بوضعهما بجانب بعضهما بشكل متواز، وقد يجدون أى الجسمين أثقل عن طريق رفع الجسمين باليدين، أى أنهم يعطون مقارنات وليس قياسات، بالشكل المطلوب، أما فى المراحل العمرية التالية، فإنهم يستخدمون أدوات القياس، مثل: المسطرة، والعصا المترية، وعصا الiardة، والساعة، ومقياس حرارة وأوعية مدرجة . . إلخ. إن توفر أدوات القياس يتيح للمتعلمين اختيار أداة القياس المناسبة، وقد يقوم المتعلمون أنفسهم بصنع أدوات قياس مما يشكل تحدٍ ممتع لهم، وذلك مثل: تصميم مقياس سرعة الرياح أو عمل نموذج للنظام الشمسى باستخدام الأدوات اللازمة والمناسبة لكل حالة .

* الاتصال :

يعنى الاتصال وضع البيانات أو المعلومات التى يتم الحصول عليها من الملاحظة بشكل ما، بحيث يستطيع أى شخص فهم معناها ومغزاها . ويمكن تعليم طرق الاتصال، عن طريق رسم صور دقيقة، أو أشكال، أو خرائط ومخططات مناسبة، أو معروضات، ونماذج دقيقة، وعن طريق استخدام لغة واضحة فى وصف الأشياء أو

الظواهر أو الأحداث . ويقاس نجاح الاتصال بمدى استيعاب الآخرين لتلك الصور أو الأشكال ... إلخ .

• التنبؤ (الوصول إلى الاستنتاج) :

إن عملية الاستنتاج عبارة عن عملية تفسير أو استخلاص تنمية مما يتم ملاحظته . فعندما نلاحظ وجهاً باسماء ربما نستنتج أن الشخص مسرور . وتعزز دقة الاستنتاج بمزيد من الملاحظات والبيانات التي يمكن الحصول عليها . يمكن مساعدة المتعلمين على الاستنتاج بالطرق التالية:

- التمييز بين الملاحظات والاستنتاجات .
- إعطاء الفرص المناسبة لتسجيل بيانات وقراءتها بإمعان .
- التدريب على الملاحظة الجيدة .
- إتاحة الفرص العديدة للتنبؤ من البيانات والمعلومات التي يتم الحصول عليها أو المتاحة .

• التجريب :

يعنى التجريب بالنسبة للمتعلم فى المرحلة الأساسية: "فعل شئ معين ليرى ما قد يحدث أو يتحقق".

وفى التجريب قد يتم تغيير طبيعة الأشياء أو الأحداث من حيث ماهيتها ولونها وتأثيراتها ... إلخ . لذلك يمثل التجريب مهارة عملية متكاملة، تتطلب استخدام بعض المهارات السابقة أو جميعها (الملاحظة، والتصنيف، والقياس، والاتصال، والاستنتاج، والتنبؤ) .

ولتفعيل النشاط التجريبي، يجب مراعاة الآتى:

- أن يكون لدى المتعلم فكرة ولو قليلة عما يريد اختباره، بحيث يمكنه ذلك فى تحقيق الهدف الذى يسعى إليه، ويساعده فى تكوين الفكرة التى يتم اختبارها (وضع الفروض) .
- أن تتوافر لدى المتعلم القدرة على مقارنة الشئ المتغير بشئ ثابت غير متغير . وهذا ما يسمى بضبط المتغيرات .

* وضع الفروض :

لإكساب المتعلمين مهارة وضع الفروض يجب مساعدتهم على تكوين الأفكار التى ينجزونها قبل معالجة الأشياء، لأن حب الاستطلاع لديهم يدفعهم للسؤال والاستفسار عن هذه الأشياء واختبارها.

ويمكن هنا استثمار الملاحظة المشتركة بين المتعلمين فى إثارة التفكير وتوجيه السؤال: ما سبب كذا ؟ أو لماذا حصل كذا ... إلخ؟

وبعد أن يضع المتعلمون مجموعة من الفروض، يجب إثارة دافعتهم لمزيد من التفكير بالسؤال: أى الفروض السابقة تتل ترجيحاً كبيراً؟ وأيهما بحاجة إلى استعادة فى تركيب الأفكار؟ وبهذه المناقشة يتم الوصول إلى المعرفة اللازمة.

* ضبط المتغيرات :

ويعنى تغيير شرط واحد من مجموعة شروط عند إجراء تجربة ما أو دراسة ظاهرة بعينها، والإبقاء على الشروط أو العوامل الأخرى دون تغيير.

أولاً : التفكير وعلاقته بالمنطق :

يتم دراسة هذا الموضوع من الزوايا التالية:

(١) نظام التفكير المنطقى (نعم / لا) :

لا شك أن أداة النفى "لا" هى أهم أداة للتفكير الإنسانى، فيها يمكن للعقل أن يرفض أية تشكيلة من الأفكار لواحد من الأسباب الآتية:

* الأفكار لا تتلاءم فيما بينها .

* ترتيب الأفكار لا يعكس خبرة الواقع .

* عدم تقبل الأفكار عاطفياً .

وباتخاذ هذا القرار تأتى الخطوة التالية: نبذ الفكرة المرفوضة . وتعد أداة النفى "لا" أقوى وسيلة لهذا، وبالتالي فهى - تعد بشكل غير مباشر - أداة لفرز الأفكار، لأن الفكرة غير المرفوضة هى فكرة مختارة . وآلية الاختيار هى إحدى آليتين أساسيتين لأى نظام يتعامل مع المعلومات (أما الآلية الأخرى فهى: آلية التغيير) .

وكأداة منطقية مجردة، فإن "لا" ليس لها تأثير كبير فى الحياة العملية، ولكن بعد ربطها ببعض المشاعر المحسوسة فإنها تكتسب تأثيراً قوياً:

- يتولد الشعور بالخوف من خلال التدريب على استخدام "لا"، فإذا ارتكب الطفل خطأ فإنه يتلقى "لا" ومعها عقاب جسدى، وفي المدرسة يعاقب على الخطأ بـ "لا" مصحوبة باستتكار المدرس، وهنا تتحول "لا" إلى رد فعل عاطفى وليس مجرد مؤثر محايد.

- و "لا" تبنى أيضا على رد الفعل الطبيعى الذى يتولد عند وجود اختلاف بين موقف ما وما ينبغى أن يكون عليه فى تقديرنا. وهذا رد فعل قوى جدا قد يصل إلى حد الشعور بالغثيان.

ونظرا لما تكتسبه "لا" كأداة للتفكير من فعالية وأهمية، فإننا نعتبرها من المسلمات كجزء طبيعى من التفكير، ولكنها فى الحقيقة أداة إعلام اصطناعية يختص بها الإنسان. ومع وجود نظم للتفكير واللغة لها أساس مختلف، فإن "لا" النافية كانت الأداة التى اختارها الإنسان وطورها.

والطرائق الأربع للصواب التى سبق مناقشتها، هى كلها مواقف لا يمكن مهاجمتها بأداة "لا"، فالصواب العاطفى يعنى أن فكرة ما تولد رد فعل عاطفيا محددًا يدعّمها، فلا يمكننا أن ننكر على شخص مشاعره، ولا يمكننا أن نقنع شخصا بشعر بالأسى عند رؤية طفل جائع بأن لا يتأثر بمشهد طفل يتضور جوعا. أما "الصواب المنطقى"، فيعنى أن الأفكار تتسق مع بعضها أو تتعاقب فى تسلسل لا يمكن إنكاره. فلو قلنا أن:

أكل المحاريات يسبب طفحا جلديا.

أحمد أكل أم الخلول (وهى من المحاريات).

فلا يمكن إنكار النتيجة المنطقية أن:

أحمد أصيب بطفح جلدى.

أما "الصواب الأوحد"، فيعنى أن التفسير الوحيد الذى يلائم الوقائع لا يبدأ أن يكون صحيحا، فلا يمكننا إنكاره حتى نأتى ببديل أفضل. وهكذا لم يكن ثمة مجال لإنكار نظرية بطليموس التى تقيد بأن الشمس تدور حول الأرض، حتى جاءت الفكرة القائلة بأن الأرض هى التى تدور حول الشمس.

و "التعرف الصائب" يعنى أنك تعرفنا على موقف ما وأنتا على صواب أمام أنفسنا، إلا إذا جاء غيرنا ولفت انتباهنا إلى بعض الفروق بين الموقف الذى تعرفنا عليه

وما ينبغى أن يكون عليه . باختصار ، إن أمكننا الدفاع عن أفكارنا ضد أى هجوم علينا باستخدام "لا" فإننا على حق .

(٢) حدود التفكير المنطقى :

على الرغم من مزايا التفكير المنطقى الهائلة (فهو عملى وسريع ومرتب وحاسم) فإن له حدوده التى لا يعرفها أو يتجاوزها أكثر الناس، وهى:

(أ) الاكتفاء بأول فكرة معقولة:

غالباً يكتفى الفرد بأول إجابة صحيحة ولا يبحث عن أية إجابة أفضل . فإذا طرحنا حلاً لمشكلة وتلقينا الإجابة "لا" فمعناها رفض الحل، وعلينا أن نستمر فى طرح الحلول حتى نأتى بحل غير مرفوض، بمعنى؛ إذا انتهينا إلى إجابة لا تقابلها كلمة "لا"، فسوف يتوقف بحثنا، أى أننا لن نسعى إلى البحث عن الأفضل، فإن كنا قد انتهينا إلى إجابة على مستوى "مقبول"، فربما كانت هناك إجابات أخرى على مستوى "جيد" أو "جيداً جداً" أو "ممتاز" ولكننا لن نعر عليها إلا بعد أن نبحث عنها، ولكن هذا الأسلوب من التفكير المنطقى لن يدفعنا خطوة واحدة بعد أول فكرة تطرح ولم يرفضها المنطق حتى لو كانت على مستوى "مقبول".

(ب) تسميات ثابتة :

تمثل "لا" سدا يقفل واحداً من طرائق التفكير فيبحث صاحبه عن طريق بديل، فـ "لا" أداة يستخدمها العقل للتفكير . وكما أن أى شخص يحاكم بأية تهمة يطلق عليه لفظ "مجرم" طوال حياته، فإن أية فكرة ألصقت بها كلمة الرفض "لا" تظل مرفوضة و "مستحيلة" إلى الأبد . وحتى لو تغيرت الظروف، يظل من الصعب إزالة كلمة "لا" الملتصقة بالفكرة وإعادة النظر فيها من جديد .

(ج) الاستقطاب الحاد :

أن آلية نعم / لا تشكل هوة سحيقة بين الفكرة المقبولة والفكرة المرفوضة، ففى نظر المنطق: أية فكرة إما أن تكون صحيحة أو خطأ . ولكن يمكن بسهولة صنع تدرج من الصواب المطلق إلى الخطأ المطلق، وقد يأتى على النحو التالى: صواب مطلق - رأى يلائم الواقع أكثر من غيره - محتمل جداً أن يكون على صواب - محتمل أن يكون صائباً - مشكوك فى صحته - لا أشعر بأنه صواب - يبدو خطأ - خطأ واضح - خطأ مؤكد - ألق به خارج عقلك فوراً - خطأ مطلق . ويمكننا أن نختار أى تدرج مختلف كما نشاء، وسنجد بسهولة فى كلمات اللغة البسيطة عوناً على عمل هذا

التدرج. ولكن من الناحية العملية، يسيطر الاكتفاء بنهايتى التدرج "نعم" المطلقة أو "لا" المطلقة ولا وسط بينهما. ويحدث هذا الاستقطاب الحاد بتلقائية تامة لأنه يلائم جدا متطلبات الحياة العملية، فبالرفض المطلق لفكرة ما يتوقف التعامل معها فوراً ويوفر الفرد وقته، وبالقبول المطلق ينتهى التفكير وينعم الفرد باليقين وينطلق إلى العمل بثقة تامة. إن الاستقطاب الحاد بين "نعم" و "لا" يلائم الحياة العملية تماماً، حيث لا يوجد "تصف عمل" أو "تصف قرار".

ومن الناحية النظرية. يمتلك التفكير كلمات مثل "ربما" و "محتمل" و "غير محتمل"، ولكننا نفضل عليها الكلمات القاطعة، لأننا نرى تلك الكلمات غير القاطعة ضعيفة وغير فعالة، برغم أننا نتعامل مع مفاهيم غير محددة بصفة قاطعة.

إن تفضيل المفاهيم القاطعة يعنى أن أى شئ نتحدث عنه إما أن يقع داخل المفهوم أو خارجه (ولا ثالث بينهما)، حيث يحبذ العقل التحديد القاطع، دون تفضيل التعامل مع المفهوم الأعم والأشمل.

(٣) غرور الصواب :

ربما كان غرور الصواب أخطر خلل يتعرض له التفكير الإنسانى. وهذا الغرور ولید آلية نعم / لا .

ولا شئ يعيب التفكير المنطقى، ولكنه لا يعدو كونه تجميعاً صحيحاً لعدة أفكار أساسية. وتكمن خطورته فى الاغترار بالتماسك المنطقى، والأخطر من ذلك الاكتفاء بنتائج هذا التفكير والتوقف عن البحث عن نتائج أخرى ممكنة. أى أن الصواب الأوحـد قد أضيف هنا إلى الصواب المنطقى.

(أ) التراث الفكرى القائم على غرور المنطق :

ولقد قام التراث الفكرى الغربى - فى أغلبه - على غرور الصواب المنطقى، وهو يستند إلى الفكرة الأساسية القائلة بأنه بإمكان المرء أن يكون على صواب مطلق، وأنه يمكن الاهتداء إلى هذا النوع من الصواب عن طريق التسلسل المنطقى. وعلى مر العصور، أكد الفلاسفة على الصحة المطلقة للنتائج. أن هذا الشعور الجارف بحيازة "الحقيقة" يعفى صاحبه من البحث عن بدائل أو ممكنات جديدة، كما يمنحه أرضاً صلبة ينطلق منها للعمل. وما دام المرء قد حاز "الحقيقة" أو "الصواب المطلق" فليس هناك ما يدعو للبحث عن مفاهيم جديدة، أما المفاهيم السائدة فستنتهى بأصحابها لنفس النتائج دائماً.

وليس الخلل الأكبر فى التراث الفكرى الغربى فيما يبدو عليه من الصواب المنطقى، وإنما فى أنه يركز فى الحقيقة على الصواب الأوحد. إن تطوير عدة أفكار أساسية ثم رصها فى بناء متماسك يجعلها تبدو وكأنها حقائق مطلقة. ولنضرب أمثلة لذلك مفاهيم مثل "الأنا، ego" أو "السبب والنتيجة"، أو "الزمن"، والتى تبدو كأنها حقائق مطلقة لا تبدل عنها، وحقيقة الأمر أن الإنسان عندما يكون مفاهيم بديلة للنظر لنفس الأشياء بطرائق جديدة، فإنه يعيش أسيرا لهذا الشعور الزائف. وأى باحث أجرى تجارب عملية على التفكير تدهشه ضراوة واندفاع أى شخص بنى أفكاره على تسلسل منطقى سليم. كما يستحيل على الباحث أن يقنع صاحب الصواب المنطقى بأن شعوره الجارف المندفع على حق يقوم برمته على المقدمات التى بدأ منها لينتهى عند نتائج. ومن السهل أن نبدأ من أى افتراضات [مقدمات منطقية] لننتهى إلى نتائج نفترض من البداية أنها على صواب مطلق، ونستمد هذا الشعور الجارف من براعة وأحكام التسلسل المنطقى.

(ب) أصناف من الغرور :

تتبدى حالات الغرور الفكرى ووهم امتلاك الحقيقة المطلقة فى أشكال متنوعة

منها:

- لا بديل no alternative :

"هناك طريقة واحدة لرؤية الأمور" ولأن اقتناع إنسان بأن طريقته هى الوحيدة الصائبة فلن يزعج نفسه بالبحث عن غيرها، بل إنه يعمد إلى طرد أية فكرة تخالف رؤيته، دون حتى أن يلقى عليها نظرة واحدة.

- لا تغيير no change :

لا يحاول الفرد تغيير الفكرة التى يتبناها، على أساس: "إن هذه الفكرة قد بلغت الكمال، فلا إمكانية لتطويرها".

- لا مفر no escape :

إن الفكرة المطروحة هى على درجة من الصواب المطلق وينبغى على كل إنسان أن يرضخ لها أو أن يسعى نحو ذلك. وأى رفض لها لن يكون إلا من باب الغباء أو الغرور أو سوء النية.

(ج) الغرور والفعالية والتعصب :

الإيمان الذى لا يتزعزع بأن فكرة ما على صواب مطلق هو أقوى قاعدة للانطلاق نحو العمل . وهذا النوع من الغرور يمنح صاحبه أربعة أشياء :

- قاعدة محددة للحكم على الأعمال والتصرفات وتحديد أفضلها .
- الإعفاء التام من ضرورة وضع وجهات النظر البديلة فى الاعتبار، ناهيك عن البحث عنها .
- حق فرض وجهة نظر معينة على الآخرين .
- الدافع للعمل (التصرف) وبغض النظر عن تضارب هذا العمل مع المصالح المباشرة لصاحب الفكرة .

ويمكن ملاحظة مدى فعالية التعصب لفكرة واحدة ثابتة فى الزعماء السياسيين والدينيين والعسكريين ورجال المال البارزين فى عصرنا هذا وفى كل العصور . وفى عصرنا هذا نرى غرور ساسة اليسار يقابله غرور ساسة اليمين، وكل من الفريقين يشكو غرور الآخر وكلاهما على حق فى شكواه . إن الغرور الذى يدفع الإنسان لانتهاج أسوأ السلوكيات تجاه إخوانه البشر هو ذاته الذى يدفع الإنسان فى سبيل التقدم عن طريق المنافسة الشريفة . وكما أن الغرور هو الذى دفع لرفض النظريات العلمية الجديدة فى بداياتها، فإن غرورا مضادا كان يتمسك بها فى وجه المعارضة والنقد .

ومن الواضح أن الشعور الواثق بصحة فكرة ما لا علاقة له بصحتها فعلا، فمن الممكن أن يثق إنسان فى صحة فكرة تصل فى سخافتها إلى إثارة الضحك، وأن يثق بها لدرجة لا تبارى . وإحدى علامات الجنون هى تلك الثقة التى لا تهتز بفكرة يراها الآخرون جنونية .

وليس للغرور علاقة بعدد الأشخاص المغرورين بفكرة ما، بل وعلى العكس - يبدو أن هناك تناسباً عكسياً بين عدد المؤمنين بفكرة ما ودرجة اغترارهم بها . وربما لو زاد عدد المتمسكين بفكرة معينة، فإن تعدد وجهات النظر داخل دائرة المنتمين للفكرة قد يخفف من غلواء الغرور بها، وبالعكس إن قل عدد هؤلاء، فسيزداد تماسك تلك الجماعة الصغيرة من البشر تحت ضغط معارضة المجتمع الخارجى عليها وتظل الفكرة "ثقة".

ولا شىء يخفف من غلواء الغرور بفكرة معينة مثل قولك: "ربما كنت على حق"، والفكرة التى تبدو كاذبة إذا نظرت إليها من خارجها تبدو هى عين العقل والصواب إذا نظرت إليها من داخل السياق المنطقى المغلق الذى تتكون منه .

(د) الغرور والغباء :

ولا تتمثل أهم سمات الغباء فى عدم القدرة على التفكير ولا فى نقص المعلومات [فهناك غباء الخبراء والمتخصصين أيضا]، بل فى الثقة التى لا تهتز بما لدى المرء من أفكار . وتلك الثقة التى تصل بسهولة إلى حد الغرور تبنى على قانون صواب الرؤية الواحدة - قانون دو بونو الثانى - والذى نصه: "غالبا لا يعدو البرهان عن كونه نقصا فى الخيال" . فمجرد غياب وجهات النظر للبديلة عن الساحة، يكسب وجهة النظر الوحيدة المطروحة مظهر الصواب المطلق . وإذا امتزج صواب الرؤية الواحدة بالتأثير العاطفى؛ فستضعاف قوة الإيحاء بالرؤية الواحدة، وربما يحق لنا الذهاب لأبعد عن ذلك ونقول أن "الإنسان الذى يعجز عن الغرور يعجز عن الغباء أيضا"، وربما كان على القائمين على التعليم النظر بعين الاعتبار لهذا الاقتراح .

(هـ) المبرر الوحيد المقبول لغرور الفكرة :

المبرر الوحيد المقبول لفكرة الصواب المطلق هو عند التعامل مع نظام مغلق، حيث ينطلق التفكير من عدة أفكار أساسية محددة، ثم ينتهى من تلك البديهيات إلى نتائج تتسم بالصواب المطلق داخل هذا النظام الاصطناعى .

والرياضيات مثال واضح للأنساق الفكرية المغلقة، وفى الحساب - مثلا - عندما نبدأ بأن نحصى "برتقالتين" بأنهما "اثنان"، وتسمى مجموعتين تتكون كل منهما من "اثنين" بـ "أربع"، سوف ننتهى إلى أن $2 + 2 = 4$ ، أو $2 \times 2 = 4$ ، ولنا أن نتمتع بكل الثقة فى تلك النتائج ما دام النسق قد حدد تلك القواعد، ومن ثم فإن كل ما ينتج عنها هو منطقى .

وما دام المرء يتعامل مع نسق مغلق من الأفكار، وما دام متأكدا من صحة خطوات تفكيره، فله ما يبرر اغتراره بالنتائج التى يتوصل إليها . ويشبه هذا لعب الورق [الكوتشينه] حيث يلعب الفرد تبعا للقواعد التى اخترعها لنفسه أو اختار أن يلعب بها . أما إذا حاول التعامل مع مواقف الحياة المفتوحة بنفس الطريقة التى يتعامل بها مع الأنساق المغلقة وببنفس الثقة المغرورة، فهو بالتأكيد على خطأ .

(و) غرور الصواب وعمليات التفكير :

وهنا قد نجد تناقضا بين حاجة الإنسان للثقة واليقين والأفكار الثابتة من جهة وبين طبيعة عمل المخ كآلية بيولوجية من الجهة الأخرى. إن الأجهزة البيولوجية تعمل من خلال التطور والتغير وليس من خلال قرارات قاطعة تنتهى إلى حالات سكونية، والكائن الحى الذى يصل فى سياق تطوره إلى سمات محددة وثابتة ومستقرة يكون قد دخل إلى طريق مسدود ويتعرض للانقراض. وفى عالم الأفكار، كلما زاد رسوخ فكرة ما قلت فرصتها فى التطور، فالأفكار مثل الكائنات الحية ليست إلا محاولات للتجارب مع بيئتها. والكائن الحى يسعى للتغير والتطور من خلال الخبرات، أما الكائن السكونى فلا يمكنه البقاء إلا إذا تحول إلى نظام مغلق واحتفظ بسيطرة تامة على كل متغيرات البيئة التى يحيا فيها.

ويعد التعليم مثالا واضحا للفرق بين نظام بيولوجى متطور ونظام سكونى جامد، حيث يفضل تلبية احتياجات ثابتة باتباع أساليب ثابتة (المناهج والامتحانات وأمالتها)، ويعد هذا الأسلوب ناجحا فقط إذا اعتبرنا التعليم نظاما مغلقا يحدد لنفسه مواصفات ويعمل على استيفائها. أما إذا نظرنا للتعليم كنظام بيولوجى [حى] ينبغى أن يتلاءم مع احتياجات المجتمع المتغيرة، فسنرى أن الأفكار الثابتة تعوق التعليم بدلا من أن تساعد.

وتتبع الحاجة للأفكار الثابتة واليقينية من عدة مصادر:

- حاجة الإنسان لأهداف ثابتة يسعى بعمله لبلوغها.
- حاجته لمعيار ثابت يساعده على صنع قراراته وتقدير الأمور.
- الحاجة لمعايير ثابتة وعامة تتسق بين سلوك الفرد وسلوك الآخرين.
- حاجة الإنسان للشعور بالأمان عندما يعرف أنه على حق.

وتشكل تلك النقاط العملية سلوك الإنسان، والمشكلة هنا هى إيجاد التوازن بين الحاجة للاستقرار والحاجة للتغيير.

إن السبيلة المطلقة تعنى الفوضى، أما الجمود المطلق فيعنى تحول البشر والعقول إلى حفريات. والنقطة المهمة هنا هى أن مفهوم الثبات مطلق أما مفهوم التطور فليس مطلقا، ولو أخذنا بالتطور فلنا اختيار المعدل الملائم للتغير وبما لا يخل بالاستقرار. كما أن القدر الكافى من التغيير يكفل استمرار التطور. أما إذا اخترنا

الجمود، فسينتهى أمر التطور تماما. فمثلا: يمكن للفرد أن يبطئ من سرعة سيارته بقودها ولكن لا يمكنه إقناع تمثال ثابت أن يتحرك خطوة واحدة.

(ز) خطأ الغرور :

تتبع الحاجة لليقين من طبيعة الجهاز المنطقي نعم / لا، ومن حاجة الإنسان إلى قوى للفكر ينطلق منها إلى الفعل، ومن الحاجة لإنهاء رحلة قطار الأفكار إلى محطة أخيرة أى إلى نتيجة منطقية للفكر. وبمجرد الوصول لتلك النقطة الثابتة ينتهى البحث عن بدائل فكرية وينتهى تطوير المفاهيم. وهذا هو ما يطلق عليه اسم "كابح الغرور". وبرغم فائدة هذه الآلية لتثبيت الفكر، فإنها قد تتحول بسهولة تامة إلى خطأ "حتما ولا بد". ويحدث هذا التحول عندما تتحول المسألة من وجود قدر كاف من اليقين يتيسر الانطلاق من الفكرة للفعل إلى الإيمان للمطلق بصحة الفكرة فى حد ذاتها.

(ح) الشك :

ويبدو أن الشك هو نقيض الغرور، كما يبدو أن الإنسان الذى لا يملك اليقين عاجز عن اتخاذ القرار وعن العمل. ومن الواضح أن الانطلاق إلى العمل مع المجازفة بالوقوع فى الخطأ هو أفضل من القعود والتجمد خوفا من الخطأ. ولكن يجدر أن نفرق بين نوعين من الشك:

- الشك المعوق: وهو الذى يعرقل أية حركة أو قرار، وهو يشبه أن يقف الفرد على محطة الأتوبيس رافضا ركوب الحافلة لأنه ليس متأكدا من خط سيرها.

- الشك الدافع: وهو الذى يدفع بصاحبه إلى الأمام ودون التعلق بطلب اليقين. ويعمل صاحب "الشك الدافع" ما يراه صوابا بينما يظل مستعدا لتعديل أفكاره أو خططه إذا تراءى له ذلك. ويشبه هذا أن يستعمل الفرد كل ذكائه فى تخمين اتجاه سير عربة الأتوبيس ويقفز فيها وهو يعرف أن بإمكانه النزول منها لو اتضح له أنه على خطأ.

الشك المعوق يقيد الحركة، والشك الدافع يحرر صاحبه من قيود طلب اليقين. وما دام الفرد مستعدا لتعديل مساره أو أفكاره بينما الآخر مستمر فيما هو بصدد، فإنه يكون أكثر تحررا وانطلاقا من زميله الذى ينتظر اليقين والنقطة.

(ط) الشك دواء للغرور :

من غير المجدى البحث عن نقيض للغرور الواثق، وإنما المهم هو تقليص الغرور الذى لا يستند لمبررات مقبولة. بمعنى، من المفيد التحرر من قبضة الغرور الواثق الذى يقيد الفكرة.

وخلاصة الحديث السابق، تتمثل فى الآتى:

- لا شئ يكسر من حدة غرور الفكرة أكثر من قول "ربما كنت على حق".
- يمكن الإدعاء والزمع بأن الإنسان الذى يعجز عن الغرور يعجز أيضا عن الغباء.
- أهم أداة للفكر الإنسانى هى أداة النفس "لا".
- أخطر خطأ يتعرض له التفكير الإنسانى هو خطأ الغرور، وهو ينشأ بصورة مباشرة من جهاز نعم / لا المنطقى.
- من أسهل الأمور أن يبدأ المرء تفكيره من فروض مسبقة ثم يشعر بالثقة التامة فى تمام البرهنة عليها منطقيا ويغتر بالبراعة التى تم بها تداول تلك الأفكار.

ثانيا : التفكير وعلاقته بالاكتشاف وحل المشكلات :

يواجه الفرد فى حياته اليومية معضلات صعبة ومشكلات شائكة، وعليه أن يتعامل معها ليكتشف أبعادها وجوانبها المختلفة، وليضع الحلول القاطعة والجازمة لحلها وتجاوزها. قد يقول قائل: إن وضع حلول قاطعة وجازمة للمعضلات والمشكلات التى تعترض سبيل الإنسان فى حياته اليومية، فيه الكثير من المغالاة فى القول، نظراً لصعوبة تحقيق هذا الهدف النبيل. الحقيقة، يجب أن يتمحور تفكير الإنسان وأن يتمركز حول وضع حلول قاطعة وجازمة للقضايا الصعبة التى تقابله وتصادفه، لأنه دون تحقيق تلك الحلول، تظل الأوضاع قائمة فى محلها دون أن تتحرك، وتظل مصدراً خطيراً يهدد سلامة وأمن الإنسان، وتجعله يعيش فى خوف ورعب وتوتر، وخاصة إذا كانت تلك القضايا ترتبط بأمر مصيرية، أو أنها تمس أيديولوجية الإنسان وعقيدته. أيضا، فإن وضع الحلول النهائية للمشكلات يضمن عدم ظهورها من جديد، كما يحول دون أن تظل برأسها مرات ومرات، حيث تسبب فى كل مرة مزيداً من التعقيدات والصعوبات. أيضا، قد يقول قائل آخر: إن المشكلات التى ترتبط بالإنسان لن تنتهى أبداً إلى أن تأتى الساعة، فالإنسان بالأمس واليوم وفى الغد يظل مصدراً من مصادر التوتر والإزعاج لنفسه وللآخرين وللمجتمع، بسبب متطلباته التى لا تنتهى، وبسبب طموحاته التى يريد عن طريقها القفز على أكتاف الآخرين، وبسبب عدم قناعته بما حققه ويريد المزيد والمزيد، وبسبب صلفه وكبريائه وغروره... إلخ. هذا صحيح، فالحياة الإنسانية، وبخاصة فى هذه الأيام الصعبة، باتت لعبة خطيرة وشائكة آتيا، يمكن أن يكون لها بداية، ومن الصعب معرفة نهاية ما سوف تصل إليه. ولكن، على الرغم من ذلك، من غير المنطقى أن نترك المشكلات تتراكم ثم نتفاقم فى حديثها إلى أن نصل إلى طريق

مسدود بالنسبة لحلها، بحجة أن هذا هو الحل، ومن المحال تغييره، لأنه يرتبط بالإنسان، الذى بات هو نفسه متوتراً، كما أصبح مصدر توتر للآخرين.

ومع إقرارنا واعترافنا بصعوبة أو قسوة ما جاء فى الحديث السابق، علينا أن ندرك أن تلك الصعوبة أو القسوة ليست نهاية المطاف، وبمستطیع الإنسان أن يخفف كثيراً من حداثها، عن طريق تفكيره العقلانى الموضوعى، إذ لا توجد مشكلة - مهما كانت ضرواتها - دون إيجاد الحل المناسب لها، بما يقطع الطريق أمامها للظهور مرة أخرى. بمعنى؛ مهما كانت أوجه حياة الإنسان المختلفة، وما تعترىها من فشل ونكوص وسلبيات وردة للخلف، فإن الإنسان يستطيع تجاوز هذه الأمور بسهولة، ليحول الفشل إلى نجاح، والسلبيات إلى إيجابيات، والردة للخلف إلى انطلاقاً للأمام، باستخدام آلياته التفكيرية. فتفكير الإنسان يعكس المعنى الفعلى لجوهره، ويظهر المعالم الأساسية لمضمونه، ويحدد هويته الحقيقية دون خداع وزيف، ويبرز كينونته دون أقنعة أو رتوش، وبخاصة إذا كان هذا التفكير واضحاً وصريحاً ومعلن عنه.

ولا نغالى فى القول، إذا أمنا بالمعادلة السهلة البسيطة: الإنسان = التفكير، إذ من خلال هذا التفكير يتجلى المعدن الحقيقى لشخصية الإنسان فى شتى جوانبها، سواء أكانت مادية أم معنوية، وسواء أكانت تعيش الحاضر أم تتطلع إلى المستقبل، وسواء أكانت تقدمية أم سلفية، وسواء ٠٠٠، وسواء ٠٠٠ إلخ. فالتفكير يعكس المعنى الحقيقة لوجود الإنسان، والتفكير - أيضاً - يمثل حدود منطلقات الإنسان، كما يعكس قنراته: أهى حقيقية ومؤثرة وفاعلة أم باطلة وزائفة ومدعية. وعليه، فإن تفكير الإنسان يجعله يمشى فى طريق الاكتشاف مهما كان محفوفاً بالمخاطر أو منشوراً بالأشواك. وقد أثبت التاريخ صحة وصدق ذلك بالنسبة للإنسان للعالم، وللإنسان العادى، على حد سواء. فالإنسان يتوق دوماً إلى محاولة معرفة المجهول لاكتشاف أسرارهِ وخباياه. وفى محاولته لاكتشاف ما يخفى عنه، قد تصادفه مشكلات عديدة ومتعددة، تفرض عليه أن يفكر فى حلها، إذ لا يوجد مفر من ذلك، طالما ظهرت أمامه.

وبعامة، الإنسان هو الإنسان منذ قديم الزمان، وحتى يومنا هذا، يستخدم تفكيره ليركب الموجة الصعبة ويحاول تكسيها على صخور المحاولات الجادة التى يقوم بها، لتكون بعد ذلك سهلة لينة يستطيع أن يرتادها دون خوف وأن يتعامل معها بغير رعب. فالموجة الصعبة هى مشكلات وظروف الحياة الشائكة التى تفرض نفسها فرضاً على الإنسان، أو التى يتجه إليها الإنسان بنفسه طواعية ودون إكراه من أحد، أما تكسير

التفكير من خلال استراتيجيات التعلم بالاكتشاف
الموجة فيتمثل فى المحاولات الجادة التى يبذلها الإنسان بصبر وعناد ودأب وتحدى من
أجل حل لغز تلك المشكلات، مستخدماً فى ذلك تفكيره.

قد يخطئ الإنسان فى تفكيره، حيث إنه يضع فى حساباته تقديرات غير
صحيحة، ولا تؤدي إلى الحل، ولكن يستطيع الإنسان المفكر اكتشاف الخطأ سريعاً،
ويلقيه خلف ظهره، أو يضعه جانباً، ليوّجه تفكيره من جديد نحو محاولات أخرى،
سوف يستطيع عن طريقها تجاوز الموقف المأزوم والمتأزم. إذًا، العبرة ليست فى
الخطأ، وإنما فيما بعد الخطأ. فالخطأ ليس مشكلة، ولكن المشكلة الحقيقية تتمثل فى
الاستكانة للخطأ، دون محاولة لتحسينه بعيداً عن الطريق. والتفكير المتجدد يساعد
الإنسان أن ينفذ غبار الخطأ الذى قد يقع على عباءة مقاصد الإنسان وأهدافه، إذ من
خلال هذا التفكير، يحاول الإنسان مرة ومرات حتى يحقق مقاصده وأهدافه بنجاح، ثم
يضع ما يحققه فى بئر خبراته السابقة، ليستدعيه أو يجلبه وقتما يشاء.

تأسس على ما تقدم، نقول أن الاكتشاف يعقبه الحل، ثم إجماع هذا الحل فى
سلة الخبرات السابقة المتراكمة. هذا هو منهجية التفكير الصحيح، إذ دون اكتشاف
وجود مشكلة وتلمس أبعادها عن طريق الخبرات السابقة، لا يمكن حلها، وبعد الخروج
من نفقها المظلم إلى طريق النور، يمكن الاسترشاد بعلامات هذا الطريق فى مواجهة
المشكلات المناظرة.

والاستقصاء من الطرق المهمة التى تساعد على الاكتشاف وحل المشكلات،
ولكن: ما المقصود بالاستقصاء؟

يعرف راشيلون (Rashelon) الاستقصاء بأنه "عملية حل المشكلة ويتضمن
توليد الفرضيات واختبارها" وهذا يعنى أن الاستقصاء يطرح أسئلة بحثية تحتاج إلى
اختبار لتحديد الإجابة عن المشكلة ذات العلاقة. ويعرفه كنيث جورج (Keneth
Goeorge) بأنه "تمط أو نوع من التعلم الذى يستخدم فيه المتعلم مهارات واتجاهات
لتوليد المعلومات وتنظيمها وتقويمها" ويؤيد هذا الاتجاه التعريف القائم على أن
الاستقصاء يولد المعرفة من خلال البحث وطرح الأسئلة اللازمة لذلك.

ويرى آخرون أن الاستقصاء هو "العمليات العقلية القائمة على تمثيل المناهج
والمبادئ فى العقل، حيث أن العمليات العقلية تتمثل فى الملاحظة والتصنيف والقياس
والتنبؤ".

وبعامة يصنف التربويون الاستقصاء ضمن أطر مختلفة فمنهم من يرى أنه مرادف للاكتشاف، وبالتالي يخضع لذات التصنيف الذى يخضع له الاكتشاف. ومنهم من يرى أن الاستقصاء أعم وأشمل من الاكتشاف باعتبار أن الاكتشاف يختص بالعمليات العقلية التى تحدث عند المتعلم فى حين يختص الاستقصاء بهذه العمليات بالإضافة إلى للتجريب، وغالباً يمكن أن يكون الاستقصاء فى إحدى صورتين للتأليين:

• الاستقصاء الحر :

ويقصد به قيام المتعلم باختيار الطريقة وأنواع الأسئلة والمواد والأدوات اللازمة للوصول إلى حل ما يواجهه من مشكلات أو لفهم ما يحدث من ظواهر وأحداث طبيعية، ولعل هذه الصورة من صور الاستقصاء هى أرقى أنواع الاستقصاء. وبذلك يكون المتعلم قادراً على استخدام عمليات عقلية متقدمة تمكنه من وضع الاستراتيجية المناسبة للوصول إلى المعرفة. فهو بذلك يقترب كثيراً من سلوك العالم الحقيقى، ويكون قادراً على تنظيم المعلومات، وتصنيفها، وملاحظة العلاقات المتشابهة بينها. وتحديد ما يناسبه منها بعد تقويمها.

• الاستقصاء الموجه :

أما الاستقصاء الموجه فهو ما يقوم به المتعلم تحت إشراف المعلم أو ضمن خطة بحثية أعدت مسبقاً، ويعتمد هذا النوع من الاستقصاء على المتعلم ولكن فى إطار واضح ومحدد يهدف تحقيق أهداف محددة.

ويتسم هذا النوع من الاستقصاء بصفات عملية أكثر من الاستقصاء الحر، ويناسب التعليم فى مدارسنا، ولاسيما أننا نسعى إلى الانتقال من الأساليب التقليدية إلى الأساليب الحديثة التى تعمل على تنمية التفكير، ولذلك بدلاً من الاعتماد على المعلم كلياً فإننا نحاول الاعتماد على المتعلم الذى نعدده للمستقبل.

انطلاقاً مما تقدم يمكن بناء نموذج يعتمد على المتعلم بالاستقصاء الموجه، بحيث يتكون هذا النموذج مما يلى:

- اختيار المفهوم: أو المفاهيم المراد تعليمها لتكون موضوع التعلم من المقرر الدراسى.
- تحديد الأهداف: التى يجب أن يبلغها المعلم نتيجة قيامه بالأنشطة المقترحة.
- بحيث تكون هذه الأهداف مصاغة صياغة سلوكية على شكل نتائج تعليمية من

وجهة نظر المتعلم، وبحيث تكون جميع هذه الأهداف مترابطة ومتسلسلة لبناء المفهوم، بالإضافة إلى أنها فى دائرة قدرة المتعلم على بلوغها.

• أوجه النشاط التعليمية: وبحساج كل هدف من الأهداف إلى نشاط أو أكثر لتحقيقه. ويتضمن كل نشاط ما يلى:

- صياغة المشكلة على شكل سؤال رئيس تنبثق منه مجموعة من الأسئلة الفرعية التى تتمحور حول المفهوم الذى تعالجه للطريقة.

- يتم تركيب المعلومات التى يحصل عليها المتعلم من الإجابات عن الأسئلة الفرعية فى كل متكامل يشكل الاستنتاج النهائى الذى يخطط إليه المتعلم نتيجة عمليات الاستقصاء العقلية التى حققها المتعلم.

- ومن مجموعة الاستنتاجات التى يحصل عليها المتعلم يكون قد بلغ إدراكه للمفهوم موضوع التعلم.

أيضا، لأسلوب حل المشكلات دوره المؤثر والمهم فى مساعدة المعلم على اكتشاف وتحقيق الحلول الصحيحة، ولكن: ما المقصود بأسلوب حل المشكلة؟ هو أسلوب يضع المتعلم فى موقف حقيقى يعمل فى ذهنه بهدف الوصول إلى حالة اتزان معرفى. ويتحقق حالة الاتزان المعرفى عندما ينجح المتعلم فى الوصول إلى حل أو إجابة أو اكتشاف، وذلك يتطلب إثارة دافعية المتعلم بما يوفر استمرار نشاطه ذهنى وصيانه حتى يصل إلى الهدف، وهو الفهم أو الحل أو الخلاص من التوتر، وذلك بإكمال المعرفة الناقصة لديه فيما يتعلق بالمسكلة.

إن نشاط حل المشكلات هو نشاط ذهنى معرفى يسير فى خطوات معرفية ذهنية مرتبة ومنظمة فى ذهن الطالب ويستطيع أن يسير فيها بسرعة آلية إذا ما تمت له السيطرة على كل عناصرها وخطواتها، والتى يمكن تحديدها بما يلى:

• تحديد المشكلة والشعور بالحاجة إلى حلها.

• العمل على توضيح المشكلة وفهم طبيعتها ومداها وأجزائها.

• جمع البيانات والمعلومات المتعلقة بالمسكلة.

• اختيار وتنظيم أكثر البيانات اتصالاً بالمسكلة.

• تقرير الحلول المختلفة الممكنة بالنظر إلى المعلومات التى تم جمعها والوصول إليها.

- تقويم الحلول لاختيار الحل الذى يناسب الموقف بدرجة كبيرة (وخاصة إذا كان هناك أكثر من حل واحد للمشكلة).
 - وضع الحل الذى يتم اختياره موضع التنفيذ.
 - تقويم عملية حل المشكلة التى أتبعت.
- ولكى تنمى هذه الطريقة مهارات التفكير الإبداعى عند الطلاب يجب أن يراعى فيها ما يلى:

- تطوير مهمات حل المشكلة (غير المألوفة للطلاب).
- تحليل النشاط التعليمى المتضمن حل المشكلة لتحديد المعرفة العلمية المسابقة والمهارات الضرورية اللازمة لحل المشكلة.
- التحقق من أن الطالب يستوعب طبيعة المشكلة موضوع البحث، وهذا يتطلب أن يعيد المتعلم صياغة المشكلة بلغته الخاصة.
- على المتعلم أن يتوصل إلى الحل بنفسه من خلال القاعدة أو المبدأ التنظيمى الذى يطور له نفسه.
- أن تكون المشكلة فى مستوى المتعلم العلمى ووفق خبراته، وتتحدى قدراته العلمية ونكاهه قليلاً.

ثالثاً : التفكير والإبداع :

قبل الخوض فى تفاصيل هذا الموضوع الحيوى، من المهم الإشارة إلى:

التفكير هو عبارة عن سلسلة من النشاطات العقلية أو الممارسات الذهنية التى يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير عن طريق إحدى الحواس الخمسة، لذلك يعنى التفكير بمعناه الواسع عملية بحث عن معنى فى الموقف أو الخبرة. أن القدرة على استخدام التفكير ومهاراته يؤدى إلى توظيف الطالب للمعلومات التى يتوصل لها فى تحديد الاختيارات المناسبة أو البدائل والافتراضات التى تعتبر أساساً لحل المشكلات التى تواجهه، ولكى يستطيع التعامل بفاعلية مع مشكلات الحياة المعقدة حاضراً ومستقبلاً.

أما الإبداع تربوياً فهو عملية تساعد المتعلم على مقابلة المشكلات وجوانب النقص والثغرات فى المعلومات بأساليب تساعد على تحديد مواطن الصعوبة والبحث عن حلول وتكهن وصياغة فرضيات واختبارها وإعادة صياغتها أو تعديلها من أجل

التوصل إلى نتائج جديدة. إذاً التفكير الإبداعي هو نشاط عقلي مركب وهادف توجهه رغبة قوية في البحث عن حلول أو التوصل إلى نتائج أصلية لم تكن معروفة مسبقاً، ويتميز التفكير الإبداعي بالشمولية والتعقيد لأنه ينطوي على عناصر معرفية وانفعالية وأخلاقية متداخلة تشكل حالة ذهنية فريدة.

هذا عن التفكير والإبداع في عجلة، أما تفصيلات هذا الموضوع، فيمكن عرضها - بإيجاز - في الآتي:

بادئ ذي بدء، من المهم التمييز بين النمطين التاليين من أنماط التفكير:

• التفكير التفريقي (Divergent Thinking) ويرتبط بنتيجة المعلومات وتطويعها وتحسينها للوصول إلى معلومات وأفكار ونواتج جديدة، من خلال المعلومات المتاحة، ويؤكد - أيضاً - نوعية الناتج وكميته وأصالته. وعندما لا يصل الفرد في تفكيره إلى إجابة واحدة صحيحة، فإنه يكون في عملية تفكير تفريقي، حيث ينطلق في تفكيره وراء إجابات متعددة تخرج عما اصطلاح عليه الناس من إجابات، وتقابل هذه العملية التفكير الإبداعي.

• التفكير التجميعي (Convergent Thinking) ويتحقق عندما يتم تنمية وإصدار معلومات جديدة من معلومات متاحة، سبق الوصول إليها، ومتفق عليها. وعندما يحقق الفرد إجابة صحيحة واحدة لما يفكر فيه فإنه يكون تفكير تجميعي محدد، إذ يصل الفرد إلى إجابات في ضوء ما يوجد في المجال المتاح، وتقابل هذه العملية التفكير الناقد.

والتفكير أياً كان يتضمن مجموعة من المهارات الأساسية، من أهمها:

(١) مهارات التركيز :

- تعريف المشكلات وتوضيح ظروف المشكلة.
- وضع الأهداف وتحديد التوجهات والأهداف.

(٢) مهارات جمع المعلومات :

- الملاحظة: تهدف الحصول على المعلومات عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس.
- التساؤل: يهدف البحث عن معلومات جديدة، عن طريق تكوين وإثارة الأسئلة.

(٣) مهارات التذكر :

- الترميز: تخزين المعلومات في الذاكرة طويلة الأمد.

- الاستدعاء: استرجاع المعلومات من الذاكرة طويلة الأمد.

(٤) مهارات تنظيم المعلومات :

وتشمل:

- المقارنة: ملاحظة أوجه الشبه والاختلاف بين شيئين أو أكثر.
- التصنيف: وضع الأشياء فى مجموعات وفق خصائص مشتركة.
- للتبويب: وضع الأشياء أو المفردات فى منظومة أو سياق وفق محك معين.

(٥) مهارات التحليل :

- تحديد للخصائص والمكونات.
- تحديد للعلاقات والأنماط.

(٦) مهارات الإنتاج :

- الاستنتاج: التفكير فى المعلومات المتوافرة لسد ثغراتها.
- التنبؤ: استخدام المعلومات المتوافرة لإضافة معنى للمعلومات الجديدة.
- التمثيل: تغيير صورة المعلومات بترميمها أو تمثيلها.

(٧) مهارات التخليص وإعادة البناء :

- تحديد وإبراز النقاط المهمة.
- ربط النقاط التى سبق تحديدها بعضها البعض.

(٨) مهارات التقويم :

- إصدار الأحكام فى ضوء معايير محددة.
- إثبات ادعاء ما بتقديم البرهان.
- الكشف عن المغالطات والتفريق بين الآراء والحقائق.

(٩) مهارات التخطيط وتشمل :

- تحديد الأهداف.
- اختيار استراتيجية التنفيذ.
- رسم تسلسل العمليات أو الخطوات.
- تحديد العقبات والأخطاء المحتملة.

- تحديد أساليب مواجهة الصعوبات ويشمل البدائل .
- التنبؤ بالنتائج المرغوبة أو المتوقعة .

(١٠) مهارات المراقبة والتحكم :

وتعمل فى أثناء تنفيذ الخطوات لتحقيق الهدف .

(١١) مهارات التقييم :

وهذه تحكم مدى تحقق الهدف ودقة النتائج ومدى ملائمة الأساليب .

(١٢) مهارات التفكير كما جاء بها بلوم، ومنها:

- الافتراضات .
- التمييز بين الحقائق والفرضيات .
- التمييز بين المقدمات والنتائج .
- استيعاب العلاقات .
- التمييز بين علاقات السبب والنتيجة .

وبالنسبة للإبداع، لا يوجد تعريف جامع يتفق عليه الباحثون لمفهوم الإبداع، ويدل ذلك على تعدد هذا المفهوم من جهة، واختلاف مناحى الباحثين واهتماماتهم العلمية ومدارسهم الفكرية، من جهة أخرى، فمثلاً: يعرفه سيمبسون (Simpson, 1922) بأنه "المبادأة التى يبديها الفرد فى قدرته على التخلص من السياق العادى للتفكير واتباع نمط جديد من التفكير". واعتبر سيمبسون أن مصطلحات مثل: حب الاستطلاع والخيال والاكتشاف والاختراع، هى مصطلحات أساسية فى مناقشة معنى الإبداع .

ويعرفه جيلفورد (Guilford, 1959) بأنه: تفكير فى نسق مفتوح يتميز الإنتاج فيه بخاصية فريدة هى تنوع الإجابات المنتجة التى لا تحددها المعلومات المعطاة، ويذكر جيلفورد (Guilford, 1969) أن الفكر الإبداعى يرجع إلى تلك القدرات التى يتصف بها معظم الناس المبدعين، وهذه القدرات تحدد إمكانية الفرد على إظهار السلوك الإبداعى لدرجة ما، وقد اعتبر جيلفورد عملية التفكير التفريقى (Divergent Thinking) إحدى العمليات الخمس فى النموذج الذهنى للبناء العقلى، باعتبارها أهم عملية لها أثرها المباشر فى التفكير الإبداعى .

ويعرفه روجرز (Rogers, 1956) بأنه ظهور لإنتاج جديد نابع من التفاعل بين الفرد وما يكتسبه من خبرات". وإذا كان الإنتاج الإبداعى يحمل طابع الفرد

المتميز، إلا أنه ليس هو الفرد نفسه، كما أنه ليس الخبرات الفعلية فقط بل هو نتاج التفاعل بينهما. ويشير روجرز فى تعريفه لعملية الإبداع على أنه فعل خلق لإنتاج جديد نسبياً، ينمو معبراً عما يكمن فى الفرد من تميز من ناحية. وعن المواد والأحداث وظروف الحياة من ناحية أخرى. ويشير روجرز إلى أن تعريفه هذا لا يضع حداً فاصلاً بين الطيب والردى؛ لأنه بهذا سيحمل طابعاً ذاتياً وأنه لا يضع حداً فاصلاً لدرجات الإبداعية.

ويعرفه بارتليت (Bartlit, 1959) بأنه: "التفكير المغامر الذى يتميز بالبعد عن الطريق المحدد المرسوم والتخلص من القوالب الموضوعية والانفتاح على الخبرة وإتاحة الفرصة للشئ لى يودى إلى غيره".

وترى بيريس (Pires, 1970) أن الإبداع هو "قدرة الفرد على تجنب الروتين العادى والطرق التقليدية فى التفكير مع إنتاج لصبل جديد أو غير شائع يمكن تنفيذه وتحقيقه". لذلك، يجب أن يكون التفكير الإبداعى هدافاً أو موجهاً نحو غرض معين، وأن يتضمن أنماطاً وتكوينات جديدة من المعلومات مستمدة من الخبرة السابقة ومن نقل العلاقات القديمة إلى مواقف جديدة أو توليد لعلاقات جديدة.

ويعرفه ماكينون (Mackinin, 1962) بأنه: "عملية تمتد عبر الزمان، تتميز بالأصالة وبالقابلية للتحقيق". وقد يتطلب العمل الإبداعى زمناً قصيراً مثل قطعة موسيقية مرتجلة وقد يتطلب سنوات طويلة كما فى نظرية دارون. وماكينون بهذا التعريف يتفق مع تورانس الذى أكد أن الإبداعية يجب أن تتسم بكونها ولقعية وحقيقية. ويتفق مع سيلى (Selye) الذى أكد أن للإبداعية مقومات ثلاث منها أن تكون حقيقية، إن قبول هذا التعريف يتضمن نتيجتين فى رأى ماكينون:

- عدم التعرض لدراسة الإبداعية كاستعداد أو قدرة كامنة بل تدرس كإنتاج أعمال تتحقق.

- عدم استخدام الاختبارات كوسيلة للكشف عن الإبداعية على أساس أن إجابة المفحوص على الاختبار تعد دليلاً على تصرفه تصرفاً إبداعياً إزاء ما يواجهه من مشكلات فى الحياة. ويمكن الرد على هذا القول بأن الاختبار الجيد يعد مقياساً موضوعياً لعينة من السلوك تسمح بالتنبؤ بتصرف الفرد بدرجة موثوق بها، وهذا معناه أن درجات الفرد على الاختبارات يمكن أن تعد دليلاً على تصرفه. ويتم استخدام الاختبارات بنجاح فى التنبؤ بكثير من القدرات العقلية، وبناء على هذا

التعريف يحدد (ماكينون) الأفراد والمجالات التى تتضح فيها الإبداعية فى: الكتابة الإبداعية، والرياضيات، والأبحاث الصناعية، والعلوم الطبيعية، والهندسة المعمارية والميكانيكية. وبذلك يقصره على هذه المجالات دون غيرها كالعلاقات الاجتماعية، ويقول ماكينون: "أنه إذا كانت الإبداعية فى مجال الفن والعلم فإن المبدع يضيف بعضاً مما عنده فى تفسير مجال ما، من طبيعته وأسلوبه كشخص على ما ينتجه".

ويعرفه ميدنك (Mednick, 1964) بأنه: "عملية صب عدة عناصر متداخلة فى قالب جديد يحقق احتياجات معينة أو فائدة ما. وتعد هذه الحلول أو العمليات إبداعية بمقدار جدة أو أصالة العناصر التى يشملها هذا التركيب". "وإن إبداعية أى إنتاج تكون بمقدار مواجهته لعدد من الحاجات".

ويعرف تورانس (Torrance, 1962) الإبداع بأنه عملية إدراك الثغرات والاختلال فى المعلومات والعناصر المفقودة وعدم الاتساق الذى لا يوجد له حل متعلم، والبحث عن دلائل ومؤشرات فى الموقف، وفيما لدى الفرد من معلومات، ووضع الفروض حولها واختبار صحة هذه الفروض والربط بين النتائج. وربما إجراء تعديلات وإعادة اختبار الفروض". وبناء على هذا التعريف فإن التفكير الإبداعى تفكير مرن، فهو وضع للفروض واختبار لها وإجراء تعديلات فيها، وإعادة اختبارها. كما أنه تفكير فى نسق مفتوح، فالمعلومات ليست مقدسة بل يمكن فحصها لإدراك ما بينهما من ثغرات واختلالات ليست لها حلول متعلمة.

ويؤكد تورانس (Torrance, 1963) أن هذا التعريف يشمل المعالم الرئيسة للتعريفات الأخرى مثل "إنتاج شئ جديد"، و "الانفتاح للخبرة". وإذا كان هذا التعريف قد تناول الإبداع كعملية، فإن تورانس يشير إلى القدرات الإبداعية عندما يؤكد أوجه الاستفادة من هذا التعريف، إذ يقول: "إذا ما قبل الفرد هذا التعريف فإنه يسأل عندئذ عن القدرات أو العمليات العقلية التى تلعب دوراً فى هذه العملية"، كما يؤكد إمكان انطباق المحكمات الثلاثة التى وضعها (هاتز) على هذا التعريف، من حيث إنه يجب أن يكون التفكير الإبداعى واقعياً حقيقياً وقابلاً للعمومية، ومثيراً للدهشة، فى ضوء ما هو معروف فى وقت الحل.

على الرغم من تعدد تعريفات الإبداع، فإنها تشترك فى عدة معالم أساسية، ولذلك فإن التفكير الإبداعى تفكير فى نسق مفتوح لا تحدده المعلومات التقليدية أو

القوالب الموضوعية، كما أنه يعبر عن نفسه فى صورة إنتاج هادف يتسم بالتنوع والجدة والأصالة وبقابليته للتحقق.

ولبعض، تشمل عملية التفكير الإبداعى أو التفكير التفرقى على العناصر التالية: الطلاقة، والمرونة، والأصالة، وقد يضاف إليها حسب رأى توراتس التفاصيل. وتقاس هذه القدرات عادة بالإختبارات التى يطلق عليها اختبارات التفكير الإبداعى، مثل: اختبارات توراتس (Torrance) التى سبق إليها جيلفورد (Guilford) وغيره، فالشخص المبدع لابد أن تكون لديه سيولة متدفقة من الأفكار، وأن تتصف هذه الأفكار بالتنوع والمرونة، كما تتصف بالغرابة والندرة.

ويمكن تطوير وتنمية تفكير المتعلمين عن طريق مجموعة من الممارسات الإجرائية، من أهمها ما يلى:

- إتباع الأسلوب العلمى فى البحث والتنقيب والتجربة وصولاً إلى الحقيقة وعدم التسليم بها وحفظها كما وردت.
- الاعتماد على الأعمال المخبرية والأصول العلمية والمراجع الموثوقة وتنفيذ النشاطات ذات العلاقة بها ليستطيع المتعلم الإجابة عن كل التساؤلات التى تحضره فى أثناء التعلم.
- الاهتمام بكيف نعلم الطالب كيف يتعلم أكثر من الاهتمام بالكم فى المادة التعليمية، وهذا يقود إلى الاهتمام بأسلوب عرض المادة الدراسية.
- قيام الطالب بنشاطات التعلم الذاتى مستفيداً من التسهيلات المتوافرة فى بيئة التعلم.
- القيام بنشاطات تعليمية ميدانية لجمع المعلومات، واستخدام للتجريب الميدانى لبحث واستنتاج مادة علمية تهدف للتعلم المخطط.
- توظيف فاعل لحلقات للمناقشة من خلال التعلم التعاونى وعرض ما توصلت إليه مجموعات العمل.
- استخدام أسلوب الاستقصاء فى توليد المعرفة واستخدامها وظيفياً لتوليد معلومات أخرى ذات معنى عند المتعلم.

رابعاً : التفكير وعلاقته بالعبرية :

يمتلك الرجل العبرى بصيرة فطرية إبداعية، يستطيع أن ينفذ منها إلى طبيعة المكان وظروف الزمان، وبذلك يؤثر بعمق فى تغيير مداركنا عن العالم. وعليه، يتمتع

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكشاف

الرجل العبقري بقوى إبداعية غير عادية، تميزه عن غيره من الرجال والنساء الموهوبين، والتي - يقيناً - لا يصل إليها البقية من البشر العاديين .

ومما يذكر أن الأعمال العبقرية لا يمكن إسنادها أو تفسيرها بأنها نتيجة للتعلم أو التقنية أو الجهد الشاق المحض، إذ إن التحليلات العلمية لم تتمكن بعد من تفسير طاقات هذه الشخصيات نادرة الموهبة، والتي تستطيع أن تنتج عملاً خلاقاً له خاصية وقيمة دأمتان .

ورغم صعوبة تعريف العبقرية، على أساس أن من لديه عبقرية لا يعرفها، والمحروم منها لا يستطيع معرفة كنهها، فإن الضرورة تقتضى اللجوء على بعض التعريفات من أجل الاقتراب - ولو قليلاً - من مفهوم العبقرية .

وفى هذا الصدد، جاء تعريف العبقرية فى معجم أكسفورد الإنجليزى بأنها: قوة فكرية فطرية من نمط رفيع كذلك التى تعزى إلى من يعتبرون أعظم المشتغلين فى أى فرع من فروع الفن أو التأمل أو التطبيق، طاقة فطرية وغير عادية على الإبداع التخيلى أو الفكر الأصيل أو الابتكار أو الاكتشاف، وهى تختلف كثيراً عن الموهبة .

وعليه، فإن الشخص العبقري هو الذى يملك أو يوهب طاقات غير عادية، فيصبح فرداً متمتعاً بميزة بعينها، وذلك يمثل "نروة الموهبة العقلية والخلاقة" .

وفى معجم أكسفورد، وبين المعانى القديمة المختلفة التى أوردها عن العبقرية، توجد ثلاثة معان، هى:

- العبقرية روح مرافقة .

- العبقرية استعداد ذو سمات مميزة أو ميل طبيعى .

- العبقرية قدرة طبيعية أو موهبة فطرية .

وإذا اقتصر حديثنا عن العبقرية كقدرة طبيعية، نجد أنها خاصة لا يمكن اكتسابها بالتعلم، ولا يستطيع امتلاكها كل فرد، لذلك العبقرية كلفظة ترادف كلمة Ingenium تشير إلى بعض الناس الذين يولدون بقدرات معينة، وهى قدرات يفتقدها الآخرون . فعلى سبيل المثال، الصنعة لا تخلق شاعراً إذا كان عارياً عن الموهبة، لذلك تستخدم كلمة "عبقرية" باطراد بمعنى خاصة غير قابلة للتفسير .

وفى وقتنا الحالى، تعبر كلمة "عبقرية" عن الإيمان بالقدرات البشرية والتى هى لب حضارتنا، وهناك اتجاه نقدى يميل إلى اعتبار فكرة العبقرية منبئة الصلة ولا علاقة

لها بشئ، ولأنها مجرد خيال رومانسى تتخذ أسماً وسيلة لتجنب التحليل الصارم للنصوص، والذي يعد المهمة الحقيقية للنقد.

وبتتبع بعض جوانب الدراسة العلمية لعباقرة للتاريخ، نجد الآتى:

كتب توماس كارلايل فى مقالة "عن الأبطال وعيانتهم، والبطولة فى التاريخ" (١٨٤١م)، "إن تاريخ العالم ليس إلا سيرة الرجال العظماء". وقد ردد رالف والدو أمرسن ما قاله كارلايل فى مقالة له بعنوان "التاريخ". كذلك تظهر فكرة التاريخ باعتباره سيرة شخصية فى أعمال المؤرخين المعاصرين للمشهورين. ففى العمل الكبير قصة الحضارة The Story of Civilization الذى كتبه كل من ولي وآرييل ديورانت هناك أربعة مجلدات متتالية بعنوان "عصر لويس الرابع عشر" و "عصر فولتير" و "روسو والثورة" و "عصر نابليون". والتاريخ، وفقاً لهذه العقيدة التى لم يتخل عنها الناس منذ وقت طويل، صاغته شخصيات بعض الأفراد الأفاضل وإنجازاتهم. وهذه الشخصيات التاريخية البارزة تصوغ التاريخ بإحدى طريقتين رئيسيتين: فمن ناحية هناك المبدعون، الذين قدموا إسهامات خالدة للثقافة الإنسانية. سواء أكتفوا علماء أو فلاسفة أو كتاباً أو مؤلفين موسيقيين أو فنانين. فالمبدعون الذين هم من مصاف آينشتاين، وسارتر، وجويس، وسترافنسكى، وبيكاسو قد تركوا تأثيراً دائماً على أفكار عدد لا حصر له من الرجال والنساء وأحاسيسهم. أما من الناحية الأخرى فإن هناك القادة الذين يغيرون العالم بأعمالهم الكبيرة وليس من خلال أفكارهم أو تعبيرهم عن عواطفهم. فالقادة الذين هم من وزن هنكل وستالين وفرانكلين وروزفلت وملوتسى تونج، قد تركوا علامة دائمة على المسار الذى أخذه التاريخ. وهؤلاء المبدعون والقادة هم من تصبح سيرهم بمثابة كتب للتاريخ.

ومن المعتقدات التقليدية الأخرى التى يؤمن بها عامة الناس مثلاً يؤمن بها العديد من العلماء الاجتماعيين، أن هؤلاء الأفراد البارزين، من المبدعين والقادة على حد سواء، يشتركون فى امتلاكهم خاصية العبقريّة. ويرجع هذا الاعتقاد على أقل تقدير، على ذلك الزمن الذى ظهر فيه كتاب فرانسيس جالتن المعروف "العبقريّة الوراثية" Hereditary Genius عام ١٨٦٩م، وهو للكتاب الذى حاول جالتن فيه أن يضع أساساً وراثياً للإنجاز المتميز. وقد كانت الأمثلة التى طرحها حول العبقريّة تتضمن قادة مثل: دوق ولنجتن Duke of Wellington، ووليم بيت William Pitt وأبيه: إيرل أوف تشاتم Earl of Chatham فضلاً عن مبدعين من أمثال عائلة باخ

وعائلة شليجل . وقد قامت كاترين كوكس بعد ذلك بأكثر من نصف قرن باقتفاء أثر جالتن فأصرت مجلداً كان له تأثيره الواضح بعد ذلك، وكان هذا المجلد بعنوان "الخصائص العقلية المبكرة لثلاثمائة من العباقرة Early Mental Traits of Three Hundred Geniuses وذلك عام ١٩٢٦م، وقد اشتملت عينة عباقرة التاريخ في دراستها على: نابليون، كرومويل، وبوليفار، فضلاً عن فولتير، ونيوتن، وسرفانتس . وقد اعتقد كل من جالتين وكوكس أنه يمكن تجميع الأنماط المحددة من المبدعين والقادة تحت الاسم الشامل المفرد ألا وهو العبقرى . وطريقة التعرف على العبقرية فى شخصية تاريخية بارزة هى التمعن فى تلك الإنجازات التى كان لها تأثير نادر الحدوث على الأجيال المعاصرة أو التالية لها، ولابد فى الغالب أن يكتسب الشخص الشهرة حتى يمكن وصفه بالعبقرية، ولابد أن تكون هذه الشهرة قد اكتسبت من خلال تقديم هذا العبقرى لإسهامات تبقى على الزمن فى نواحي النشاط الثقافية أو السياسية، أى أن العبقرية تعرف بالإجاز .

ومع ذلك فإنه لا يتوجب على المرشح للقب العبقرى أن يكون "محققاً" أو "طيباً" فجنكيز خان وأدولف هتلر، مثلاً يمكن أن يدعى عبقرين من نوع خاص .

"فالعبقرى الشرير" يظل عبقرى، أياً كان مقدار ما يثيره من اشمزاز من الناحية الأخلاقية . كذلك لا يهم ما كان عليه أفلاطون أو أرسطو من خطأ فيما يتعلق ببعض القضايا الفلسفية أو العلمية، إذ يكفى أن أخطاءهما الكبرى نجحت هى أيضاً فى إكسابهما أنصاراً على مدى أكثر من ألفى عام . ذلك أن العبقرية تقاس من خلال مقدار التأثير الذى خلفته على المعاصرين واللاحقين، وليس من خلال مدى أخلاقية هذا التأثير أو صدقه . وعندما يسلك أحدهم فى عداد العباقرة فإنه قد يحظى بالتمجيد أو يستنزل اللعنات، لكن المهم هو ألا يتعرض للإهمال التام .

على أن تعريف العبقرية من خلال الشهرة أو النبوغ، لا يقدم أى تمييز عميق ما بين الإبداع والقيادة . فالمبدعون البارزون والقادة النابيهون لا يمثلون أكثر من المظهرين الأساسيين للعبقرية فى التاريخ . وبمعنى ما، فإننا عندما نضع أشهر المبدعين وأشهر القادة تحت الفحص فإن ذلك الفرق بين الإبداع والقيادة يختفى، لأن الإبداع يصبح شكلاً من أشكال القيادة . وعلماء علم النفس الاجتماعى الذين درسوا القيادة فى ظروف المختبر والحياة العملية، كثيراً ما عرفوا القائد باعتباره ذلك العضو من الجماعة الذى يمارس على أداء هذه الجماعة، وعلى اتخاذها لقراراتها، تأثيراً يفوق تأثير

الأعضاء الآخرين . وانطبق مثل هذا التعريف على القادة للمشهورين فى الماضى أمر واضح . فلم يسيطر أى شخص على تاريخ الشعب الألمانى ما بين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٤٥ سيطرة بلغت فى قوتها سيطرة هتلر . والإبداع، من خلال هذا التعريف، يمكن اعتباره شكلاً خاصاً من أشكال القيادة . فالمبدعون هم قادة ثقافيون . وقد كان لأفكار ألبرت أينشتاين النظرية تأثيرها البالغ على زملائه من علماء الطبيعة، وعلى المجتمع العلمى بشكل عام، وحتى على الجمهور بمعناه الكبير . كذلك كان تأثير بيتهوفن على الموسيقى، وميكل أنجلو على النحت، وشيكسبير على الدراما تأثيراً فذاً فى زمانهم هم، وفى الأجيال التالية لهم . وكما أشار بن جونسون، منافس شيكسبير فى اجتذاب نظارة المسرح، فإن شيكسبير لم يكن ينتمى إلى عصر بعينه، بل إلى كل العصور . وقد بلغ من إعجاب معاصرى ميكل أنجلو، ومن جاءوا بعدهم، أنه أصبح معروفاً بأنه ميكل أنجلو الإلهى . وقد فسر برامز سبب توقفه عن كتابة إحدى سيمفونياته مدة اثنى عشر عاماً بقوله "إنك لن تستطيع أن تعرف كيف يشعر أمثالنا، عندما نسمع وقع أقدام عملاق مثل بيتهوفن خلف ظهورنا" . إن المبدعين المشهورين هم قادة فى الشئون الفنية والعلمية .

وتقدم إلينا مجموعة العوامل التى نستعين بها لفهم المبدعين الأفذاذ، عوناً مماثلاً على فهم القادة البارزين . وإذا ما شئنا الاكتفاء بعدد قليل من الأمثلة، قلنا إن دراسة عوامل مثل: ترتيب الميلاد، والذكاء، والتعليم، والعمر، وروح العصر Zeitgeist، والعنف السياسى، تعمل على تقدم فهمنا العلمى للعابرة أياً كان نوعهم . وهذا يعنى أن هناك أسساً مشتركة خاصة بالتعريف، وأسماً مشتركة خاصة بالتعليل [تعليل ظهور القادة أو العابرة]

إن دراسة العبقرية باستخدام أساليب القياس التاريخى Historiometry، وهو مصطلح وضعه "فردريك وودز F. A. Woods فى عام ١٩١١" كى يشير به إلى تلك الفئة من البحوث التى يتم فيها إخضاع حقائق التاريخ للمعالجة الإحصائية، وفقاً لبعض أساليب القياس الموضوعية، أو اللانفسية . ولتجنب الخلط بين هذا الأسلوب، وبين الأسلوب المعروف باسم "الإحصائيات التاريخية" Cliometrics، وهو أسلوب له مؤيدوه حالياً بين بعض المؤرخين، فإن هذا التعريف لابد أن يخضع لقدر من التهذيب، بحيث نعرف القياس التاريخى بأنه الأسلوب الخاص باختبار الفروض العامة أو الناموسية Nomothetic التى تتعلق بالسلوك الإنسانى من خلال تطبيق التحليلات الكمية على معطيات مستخلصة من عينات تاريخية .

والعبقريّة في وقتنا الحاضر، جزء أساسي من معجمنا اللغوي اليومي . إنها الكلمة التي مهما تددت قيمتها، ستظل تعبر عن الإيمان بالقدرات البشرية التي هي لب حضارتنا . وهي أيضا شئ جوهري كما يقرر ريتشارد بواريري "فلأنها غامضة للسبب نفسه، ولأنها يمكن أن تساند حلم الإنسان بقوته وسيطرته، فهي بذلك تحد للآلهة الأخرى"، وهناك اتجاه بين النقاد والأكاديميين عامة يميل إلى اعتبار فكرة العبقريّة منبئة الصلة ولا علاقة لها بشئ، وأنها مجرد خيال رومانسي تتخذ أساسا وسيلة لتجنب التحليل الصارم للنصوص، والذي يعد المهمة الحقيقية للنقد .

في ضوء ما تقدم، نزعم بأنه ليس من العسير الوقوف على أسباب الشك في وضع تعريف لمفهوم العبقريّة، ففكرة العبقريّة في الحقيقة فكرة تحيط بها الصعوبات .

فكيف نعرف العبقريّة؟ وكيف نفرق بينها وبين الموهبة؟ وإذا كانت القوة الإبداعية مقوما أساسيا من مقومات العبقريّة، فما مقدار ما يمتلكه الشخص من هذه القوة كي يكون عبقريا؟ . . . وفي هذا الخصوص، نرى من هو المبدع على وجه الدقة؟ فنحن جميعا يمكن أن نكون مبدعين بدرجات متفاوتة، ولكن ما ذلك الذي يجعل من إنسان عبقريا؟ لو كانت السمة المميزة لعمل عبقري هو صموده لمعيار الزمن، فهل من الممكن تطبيق الفكرة بأثر رجعي؟ إن صعوبة الإجابة عن أسئلة كهذه، وشدة غموض العبقريّة تجعلان المفهوم أمام الكثير من الناس لا معنى له . . . والعبقريّة فضلا عن ذلك هي بالضرورة من سمات الصفوة، ليس فقط لما تمنحه من امتياز لأفراد بعينهم، بل لأنها أيضا ترفع أنواعا معينة من النشاط فوق أنواع أخرى، فالعبقريّة تجبرنا على إصدار أحكام قيمة، وهو أمر قد لا يكون شديد الصعوبة بالنسبة للاكتشافات العلمية أو البراهين الرياضية، ولكنه يجعلنا غير مطمئنين تماما حين يتصل بالفنون الإبداعية .

ومرة أخرى نثير فكرة العبقريّة أسئلة حول دور المبدع ومكانته في المجتمع . فنيته، كما يذكرنا مايكل تاتر، يصر "على استحالة توقع ظهور عمل متميز (وهو الشئ الوحيد ذو القيمة) من شخص ما يعيش حياة برجوازية نمطية" . هل نتيج العبقريّة لمن يمتلكها الحق كل الحق في تجاهل قواعد المجتمع الذي يعيش فيه، وأن يعامل بمعايير مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي تطبق على أقرانه؟ ليس من العسير على وجه اليقين أن نفكر في أمثلة لعباقرة قدموا أفعالا رائعة تضيف قيمة للحياة . لكنهم كبشر يتسمون بالخسة . ومما لا شك فيه أن الاعتقاد في غرابة أحوال المبدعين واختلاف حياتهم عن الحياة العادية كان جزءا مهما من آراء أصحاب العقيدة الرومانسية في العبقريّة، والتي

كانت فيها المعاناة ثمنا يتحتم على العبقرى أن يدفعه، لا من أجل قواه البشرية الخارقة فحسب، بل من أجل الحرية الشاملة كذلك، هذه الحرية التى رأى من واجبه ومن مظاهر امتيازها أن يستثمرها. ولقد تجلى هذا التركيب المعقد من الأفكار فى أسطورة فاوست، تلك الأسطورة التى تمدنا من مارلو إلى توماس مان، بأقدم الأمثلة وأكثرها دولا لوجهة النظر الميفيستوفيلية عن العبقرية، متمثلة فى صرخة فاوست بوزونى "هينسى العبقرية بكل ما فيها من آلام".

وربما يقودنا هذا إلى مشكلة من أشد المشكلات المرتبطة بفكرة العبقرية صعوبة، وهى المشكلة التى تدور حول العلاقة بين الفنان وعمله. ومع أن دراسة العبقرية هى فى النهاية دراسة للقوة الإبداعية للبشرية، واهتمامها الأساسى منصب على الإنسان المبدع، أكثر من كونه منصبا على العمل الذى يبدعه (وهو بلا شك السبب فى أن علم النفس والطب النفسى هما فقط فرعا الدراسات العقلية للذيان لا يزال تحليل العبقرية يجد فيهما مجالا نشيطا) إلا أن العمل هو الذى يدفعنا إلى الاهتمام بالفرد المبدع. وتكون هذه المشكلة أقل حدة فى حالة للحدوس الرياضى أو الاكتشاف العلمى، حيث إن العمليات العقلية المستخدمة مهما تكن قائمة على الحس، فإن النتيجة النهائية تحتوى على علاقة ما بالأحداث التى يمكن التحقق منها أو بالحقائق القابلة للملاحظة. بيد أن فى الفنون الإبداعية يعكس العالم التخيل الذى يبدعه الفنان حتما عقيلة فرد بعينه، ولو بطريقة تتسم بشدة الغموض والتعقيد. وفى حين أنه من الممكن أن نتخيل أن شخصا آخر كان سيتنبط النظرية العامة للنسبية لو لم يستببطها أينشتين، فلا يمكن أن نتصور أن تأليف موسيقى بيتهوفن أو شعر شكسبير كان يمكن أن يتم لو أن هاتين الشخصيتين المهمتين لم توجدا. ولا يعنى هذا أن نقول إن أينشتين كان أقل عبقرية من بيتهوفن أو شكسبير، ولكننا نهدف فحسب إلى إبراز نقطة واضحة، ألا وهى وجود فروق بين طبيعة العبقرية فى الفنون وطبيعتها فى العلوم. لما ما هو ضرورى بالنسبة لتصور العبقرية فى أى مجال فهو وجوب أن يكون العمل نفسه داعم الجودة والقيمة، وهذا بوضوح هو السبب فى أن فكرة العبقرية لم تطبق أبدا بأى معنى من المعنى على الفنون الأدائية. والمشكلة الرئيسة التى تطرحها العبقرية بالنسبة للفنون الإبداعية كانت موضع اهتمام واضح فى النقاش الذى أعقب كلمة ريموند كليبينسكى التى ألقاها فى المؤتمر الذى انعقد عن العبقرية. فحين أثير سؤال عن سبب عدم وجود تقليد متأثر عن عبقرى سعيد فى الحضارة الغربية، أجاب كليبينسكى بشكل مباشر "وهل كان بمقدور رجل سعيد أن يكتب هاملت؟".

إذاً من المهم دراسة موضوع تطور فكرة العبقريّة من بدايتها فى العصور القديمة الكلاسيكية وحتى نقض فكرة العبقريّة على يد الناقد المعاصر . وفى هذا الشأن، وداخل إطار زمنى ممتد يقوم خبراء مختلف المجالات بمحاولة استكشاف جوانب الفكرة من زوايا مختلفة، وهم بذلك يعكسون الطبيعة المثيرة للجدل لموضوع يتطلب تفاعل عدة فروع من العلم .

وجدير بالذكر أن الموسيقى والرياضيات، هما المجالان اللذان لا تزال فكرة العبقريّة تطبق فيها بشكلها التقليدى من قبل عامة الناس على الأقل، إن لم يكن من قبل الموسيقيين والرياضيين أنفسهم . أما أعظم إسهام قدمه القرن العشرون فى دراسة العبقريّة، فهو فى مجال الطب النفسى . أما ما يحمله مستقبل فكرة العبقريّة فى ثنايا الحضارة ذات النزعة النفعيّة المتزايدة التى نحياها فسيظل أمراً قابلاً للجدل .

وبالنسبة للنقطتين الأخيرتين، يتم عرضهما على النحو التالى:

(١) العبقريّة والجنون :

يقول "نيل كسل": العبقريّة والاضطراب العقلى تاريخ أفكار متعلقة باقتترانهما . ويقول "أندريه جيد": أجمل الأشياء هى تلك التى يوحى بها الجنون ويكتبها العقل .

وعندما عبر القدماء - كما فعلوا بصورة مختلفة - عن فكرة أنه "لم توجد أبداً أية موهبة فطرية عظيمة ingenium دون مس من جنون dementia"، فإنهم لم ينسبوا إلى الموهبة الفطرية أو إلى الجنون معانى تترجم بطريقة مقنعة إلى عبقريّة وجنون، والارتباط الطويل بين الاثنين، والمستمر حتى اليوم .

وكان على القرنين السابع عشر والثامن عشر أن ينزلا "العقل النبيل الجليل" باعتباره الصفة الرئيسة لعظماء الرجال، عن عرشه الرفيع، ويستبدلا به الأصالة والخيال . وحل الفنان بوصفه أرفع الكائنات شأناً، محل الحكيم . وولدت الفكرة الحديثة عن العبقريّة مع هذا التغيير، وحملت كل الكتابات اللاحقة عن العبقريّة فكرة مؤداها أن الذكاء المفرط ليس هو الشرط الأساسى لوجودها، وفى نفس العصر بدأ التقييم المستتير للجنون . ولقد أدى الوصف المنهجيّ فى القرن السابع عشر بداية الفهم العلمى . وخلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر، أتاح التقدير الصحيح للاضطراب العقلى فرصة استكشاف علاقته بالعبقريّة .

ولقد عبر باسكال عن الفكرة نفسها قائلا: "المفكر العظيم متهم بالجنون تماما كالمجرم العظيم". وبعد قرن ونصف كان لامارتين أكثر تطرفا وهو يشير إلى "هذا المرض الذى نسميه بالعبقرية". وقد فسر ذلك بقوله:

"وتحمل العبقرية فى ذاتها مبدأ الهدم، والموت، والجنون، كما تحمل الثمرة فى باطنها الدود".

ولقد عبر أمثال هؤلاء للكتاب بحرية عما كان فى ذلك الوقت مجرد معتقدات. فلم يفحص أحد منهم علاقة الفكرة بالمرض، لا بالتحقق منها ولا بتفسيرها. وبدأت تظهر فى القرن التاسع عشر أصوات أكثر اعتدالا، وأكثر تصميما وتعللا فى التعبير عن شكوكها. وكتب أسكيرويل أشهر طبيب نفسى فى عصره فى كتابه عن "الأمراض العقلية" يقول:

لقد قال درايدن إن أصحاب العبقرية والمجانين شديدا القرب من بعضهم البعض. وإذا كان معنى هذا أن الذين يتمتعون بخيال نشيط جدا أو مضطرب جدا ولديهم أفكار رفيعة جدا أو متقلبة جدا يبدوون شيئا من التشابه مع المجانين، فإن هذا صحيح. ولكن إذا كان المعنى المقصود هو أن الذكاء العظيم يخلق الاستعداد للجنون، فإن هذا خطأ. فأعظم العباقرة فى العلوم والفنون، وأكبر الشعراء، وأنبغ الموهوبين من المصورين، قد احتفظوا بسلامتهم العقلية إلى أرذل العمر. وإذا كان أحد قد رأى مصورين أو شعراء أو موسيقيين وفنانين وقد أصابهم مرض عقلى، فإن الذى حدث فى الواقع هو أن هؤلاء الناس فى ذروة خيالهم المتوقد بالنشاط قد ساروا فى حياتهم من النقيض إلى النقيض، لقد كانوا أكثر من غيرهم من الناس عرضة لأن تؤدى بهم شخصياتهم إلى مثل هذا الوضع. والسبب فى فقدانهم لعقولهم لا يرجع مطلقا إلى أنهم قد مارسوا ذكاءهم، كما لا ينبغى. مطلقا أن نلقى اللوم على أعتاب العلم أو الفن أو الإبداع. فالذين وهبوا قدرات عظيمة فى الفكر أو الخيال يشعرون بالحاجة الشديدة إلى إثارة أحاسيسهم. وتحت إلحاح الحاجة الشديدة إلى هذا الشعور، يستسلم معظم المصورين والشعراء والموسيقيين فى أسلوب حياتهم لكثير من التجاوزات التى تعتبر بالنسبة لهم، أكثر من الدراسة المفرطة، هى العلة الحقيقية للجنون.

لقد راقب اسكيرويل عددا لا يحصى من مرضى العقول من كل دروب الحياة، وعرف الموضوع الذى يكتب عنه معرفة دقيقة. ولهذا استطاع أن يحض للتعميم الذى وقع فيه درايدن وأن يقدم تفسيرا للحالات التى يتعرض فيها العباقرة للجنون. وشاهد

تشارلز لامب كذلك عن قرب حالات المرض العقلى، وأقر باستحالة أن ينتج المجانين أعمالا عظيمة. ففى مثاله "عن الصحة العقلية للعبرى الحقيقى" كتب يقول: "بعيدا جدا عن موقف القائلين بأن الموهبة العظيمة (أو العبقريّة بأسلوبنا المعاصر فى الكلام) ملازمة بالضرورة للجنون، فإن أعظم الموهوبين على النقيض من ذلك هم دائما أعقل الكتاب. ومن المستحيل على العقل أن يتصور أن شيكسبير كان مجنونا".

وكلما خضعت العلاقة بين العبقريّة والاضطراب العقلى للفحص الدقيق بدا أنها تتناقص. والواقع أن العبقريّة - وهى أروع زهرة تتوج الجهد البشرى - تقف للوهلة الأولى فى مقابل الحالة المتكسبة للمرض العقلى، بحيث يتعذر علينا أن نتصور وجود علاقة بينهما. ومع ذلك فقد ظلت موضع التفكير المستمر لما يقرب من أربعمئة عام. وعلينا الآن أن نبحث عن أسباب ذلك. ولكى نقوم بهذا يتحتم علينا أن نتزعزع بعض الخيوط التاريخية من مفهوم العبقريّة المتطور.

وأول هذه الخيوط هو فكرة الانفعال. وإذا توجهنا إلى ديدرو سمعناه يقول: "لقد عشت طوال حياتى أدافع عن الانفعالات القوية، فهى وحدها التى تحركنى. وفنون العبقريّة تولد مع الانفعالات وتموت معها". ومن هذا، نتبين فى الحال أن الانفعال المفرد - النبوة - يحمل فى طياته علاقة وثيقة بالجنون.

وحين كان العمر يتقدم بديدرو تراجع، كما فعل جوته، عن منح الانفعال الدور الرئيس فى العبقريّة، رغم أنه لم يقلل أبدا من شأنه. ولقد أدت كل من الملاحظة والعقل الدور الأكبر فى هذا. ومثل هذا التغيير يعد نقمة ونعمة ترجع إلى كبر السن. واعتقد ديدرو كذلك أن العبقريّة التى لا تقبل فى رأيه التبسيط ويتعذر تحليلها إلى الأجزاء التى تتكون منها، تتضمن التطوير لجانب واحد فى الإنسان، وهذا نوع من الشذوذ الذى يجعل منه ماردا وحشيا.

ولقد ناقش ديدرو أمرا آخر له كذلك أهميته عند بحث العلاقة بين العبقريّة والجنون. فقد راح يفكر بطريقة غير محددة فيما إذا كان ينبغى اعتبار العبقريّة شيئا مفضلا عن الإنسان، ملكة (أو قدرة) يمكن تأملها بطريقة تجريدية، بحيث يمكن أن نتحدث عن إنسان "يمتلك عبقريّة"، أو ما إذا كان ينبغى علينا من ناحية أخرى ألا نعتبر عبقريّة هذا الإنسان عاملا منعزلا، بل (نعتبر أنها) قد حولته (تحويلا جوهريا)، بحيث أصبح مشعبا بها كلية، وغدا عبقريا أو "صاحب عبقريّة".

ويعكس هذا الجدل بصورة دقيقة إلى حد كبير، خلافا قديم العهد عن الطريقة التى ينبغى أن نفكر بها فى المرض. ولا شك فى أن جوته قد أخذ بوجهة النظر الأولى، وهى أن العبقرية تتألف من طاقة فريدة أو تنظيم للطاقة. ومناقشة العبقرية كشئ يمكن التفكير فيه بمعزل عن الإنسان الذى "يملكها" - إذا جاز هذا التعبير - يجعلها مفهوما أكثر مرونة وطواعية. ثم إنها أيضا تقدم تفسيراً للإنسان العبقرى، الذى يكون خارج المجال الخاص بإنجازاته الرفيع، أعنى باستثناء أوقات خاصة وفى ظروف خاصة، شخصا عاديا يمكننا أن نتكلم معه وأن نكون فى صحبته. يقول ابن شقيق رامو بطل قصة ديدرو "اللابطل والكاذب الوغد": "هذا الذى أحبه فى أصحاب العبقرية، أنهم يصلحون فقط لشيء واحد، أما فيما عدا هذا فهم لا شيء".

وطوال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، حدث أغرب وأتسع وأفسد ربط للعبقرية بالاضطراب العقلى. وقد دفعت سلسلة من الأخطاء والتوريات السمجة نظريات التحلل المرضى إلى مكان الصدارة. وكانت الأفكار المتعلقة بالتطور حينئذ مثيرة لأوروبا بأسرها. وتمت الموافقة على نطاق واسع على حدوث نوع من انتقال الخصائص الوراثية من جيل إلى جيل. وقدم دارون فكرة الانتخاب الطبيعى، لكن الآلية التى تتم بها عملية التطور كانت فى منتصف القرن ما تزال بعيدة عن التقدير الصحيح. وقد افترضت نظريات التحلل أن ثمة عملية مزدوجة تسبب الحالة القابلة للتوريث. فهى قد تنشأ من مرض عضوى، وقد تحدث نتيجة لسلوك أخلاقى معيب. وكان أحد الآراء المقترحة أن المرض ينشأ عن الإثم، ولهذا أطلق على ضحايا التحلل اسم المنحرفين، أو بصورة أكثر تعاطفا وإن لم تقل عما سبق وضوحا، اسم المتدهورين (أو المنحللين).

"الحقيقة التى لا يرقى إليها الشك، هى أنه حيث توجد سمة وراثية فى أسرة ما، فإن أحد أعضائها قد يظهر أحيانا عبقرية ضخمة، بينما يكون عضو آخر مجنونا أو مصابا بالصرع. ولكن هذه الحقيقة لا تثبت فى الحالتين أكثر من وجود حساسية طبيعية شديدة فى التكوين العصبى، وأن هذه الحساسية قد اختلفت فى كل حالة تحت تأثير الظروف الخارجية أو الحالات الداخلية".

ومن الطبيعى، لا توجد الحالتان معا فى نفس الفرد، إذ إن أى مجنون تعوزه القدرة على الاستيعاب الذهنى الهادئ والمتواصل والكامل، ولا بد أن يكون عاجزا عن

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكشاف
التطور العقلى فى مراحلہ العليا وعن الخيال الخلاق بحق، ولا يكون سليما ولا واسع
الإدراك.

وفى عام ١٨٦٩ ظهر لجالتون كتاب العبقريّة الوراثية. ولم تكن العبقريّة فى
رأى جالتون صفة خاصة، إذ استخدم المصطلح بحرية واعتبره مرادفا للقدرة الفطرية.
ولا يحذ جالتون الافتراض الذى يستطرد فى شرحه، الذى يتمحور حول العبقريّة،
حيث يقول:

"إذا كانت العبقريّة تعنى شعورا بالإلهام أو بتدافع أفكار من مصادر يبدو عليها
أنها خارقة للطبيعة، أو إذا كانت تعنى الرغبة المضطربة العارمة فى تحقيق أى هدف
محدد، فإن ذلك يكون قريبا بصورة خطيرة من الأصوات التى يسمعها المجانين ومن
مبولهم إلى الهذيان، أو من نوبات المس الأحادى التى تصيبهم. إن العبقريّة فى مثل
هذه الحالات لن تكون ملكيّة عقلية سليمة، ولن يكون من المرغوب فيه العمل على
المحافظة عليها عن طريق الوراثة".

ومع ذلك، فإن فكرة العبقريّة بوصفها إلهاما أو تدافع أفكار مفاجئة، كانت فكرة
سائدة بين أولئك الذين تشبعوا بنظرية التحلل. وكانت هذه النظرية قد قطعت تقريبا
نهاية الشوط، ولكن شعبيتها تزامنت مع الانتشار الواسع للمصحات العقلية فى أوروبا.
ويعبر بورتر عن ذلك تعبيرا لا يخلو من الإبهام فيقول: "لقد ساعد ظهور مؤسسات
الطب النفسى على إيجاد حضانات هدامة للعبقريّة على نحو غريب".

وفى القرن العشرين نجد أن كرتشمير هو الوحيد من بين كل الأطباء النفسيين
الذى تابع الأفكار الخاصة بالتحلل متابعة جادة، وتبنى المفاهيم المتعلقة بالتطور
والاندثار، وذلك بالرغم من حرصه على دعوة قرائه لفهم العبقريّة من جهة علاقتها
بالعصاب واضطراب الشخصية، بدلا من المغالاة فى بحثها من جهة علاقتها بالذهان
(كما كان الحال حتى ذلك الحين).

وقد أكد كرتشمير أن: العامل السيکوباتى (النفسى المرضى) جزء جوهري
وضرورى، وربما الحافز الأساسى، لكل أشكال العبقريّة.

بهذا نكون قد رجعنا إلى القدماء، فالاضطراب العقلى عنصر "ضرورى" لا
غنى عنه للعبقريّة. غير أن آراء كرتشمير لم تحظ إلا بالقليل من الاحترام. وفى أواخر
القرن فقدت نظريات التحلل المرضى إقرار العلم بها عندما تم فهم مبادئ الوراثة على

نحو صحيح. ولم تعد تلك النظريات تجد أى تأييد من جانب علماء الطب، ولم يبق لها أثر إلا عند عامة الناس عندما يريدون عبارات كهذه: "إنه ينحدر من أصل متواضع".

لقد حان الوقت الآن لتناول خيط تاريخى آخر ولأن ندرس العبقرية فى علاقتها بالمجتمع. إن العباقرة يغيرون طريقتنا فى فهم الأشياء، والملاحظة العامة التى قالها برنسون وهى: "أننا نعرف العبقرية بأنها القدرة برد فعل (إبداعى) منتج فى مقابل الممارسة التى تعود عليها الفرد"، كانت صدق لفكرة مشابهة عبر عنها برومست عندما قال:

"إن عبقرية الفنان تشبه درجات الحرارة شديدة الارتفاع التى لها القدرة على تفكيك تجمعات الذرات ثم تجميعها مرة أخرى فى ترتيب مختلف كلية ومطابق لنمط آخر".

ولقد عبر صمويل بتلر عن هذه الفكرة تعبيراً ينفذ إلى الصميم حيث قال:

"تدل العبقرية على التغير، والتغير هو الاستيقاق إلى عالم آخر جديد، ولهذا يشك فيها العالم القديم. إنها تفسد النظام، وتزعزع العادات والتقاليد، ولهذا فهى لا أخلاقية. إن الفطرة غير المألوفة عند العبقرية، والفطرة الطبيعية للمسلمة عند بقية الناس، هما كالزوج والزوجة دائماً فى شجار".

وهو بعد ذلك بقليل يكاد يستعطفنا كى نوافق على أن:

"العبقرية شئ يبعث على الضيق، ومن واجب المدارس والكليات وضع حد لها بنصب الفخاخ المناسبة فى طريقها".

وإذا كان العباقرة يعكرون صفو المجتمع، وإذا كانوا يسيئون التكيف معه، فإن هذه صفة أخرى يشاركون فيها مرضى العقول. ولكن إجراء هذا الاقتران شئ خطير، لأن الأسباب التى تكمن وراء نمطى الاضطراب مختلفة إلى حد بعيد. ومن سوء الحظ أن لدينا اليوم أسباباً قوية تحملنا على التأكد من وجود أماكن يخطر من يصرح فيها بأفكار مبتدعة ومارقة بالتعرض للحبس بتهمة الجنون. لقد كانت العلاقة الوثيقة بين الانفعال والجنون فكرة من أفكار القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكانت النظرة إلى المزعجين وعدم المتكيفين على اعتبار أنهم مخبولون، مسألة محزنة شغلت للقرنين التاسع عشر والعشرين.

وهناك صفة أخرى يسيرة الفهم جداً، وهى صفة الحمد التى يمكنها أن تضاعف من حرصنا على اعتبار العباقرة مرضى عقليين. فمسمية العباقرة بالمجانين،

ووصم وصفهم المرموق - إذا جاز هذا القول - بسمة مميزة، يجعلنا بشكل من الأشكال نقل من شأنهم، بحيث يمكن لمتناوضى الحال من أمثالنا أن يتقبلوا وجودهم بمزيد من الارتياح. يقول سويقت: "عندما يظهر عبقرى حقيقى فى العالم فإنك تستطيع أن تعرفه بهذه العلامة، وهى تحالف الأغبياء جميعا ضده". ويعبر ديرو على لسان ابن أذى راموا عن هذا قائلا:

"أنا حسود، وحين أسمع عن وجود صفة معينة فى حياتهم الخاصة من تلك الصفات التى تحط من أقدارهم، فإننى أصغى إليها بسرور، ذلك لأنها تقرب ما بيننا، وتساعدنى بسهولة على التعايش مع قدراتى المتواضعة".

وفى الكتاب الموجز الذى وضعه لانه ايشباوم بعنوان "العبقريّة والجنون والشهرة" وصدر لأول مرة فى عام ١٩٢٧، اعتبر لانه الشهرة - مثلما فعل جالفون - ضرورية للعبقرى، وقد قرن فيه عوامل الموهبة بوضع الموهبة الكبيرة أو العادية مقابل المرض العقلى أو الصحة. وهو لم يقدم معطيات كمية، وإنما قادته بحوثه فى السيرة الذاتية (للعباقرى) إلى الاعتقاد بأن معظم العباقرى كانت لديهم موهبة كبيرة مع شىء من الشذوذ العقلى، وقد وجد أن عددا أقل من أصحاب الموهبة الضخمة كان سويا من الناحية العقلية، كما كان لعدد قليل موهبة عادية وعقلية مريضة. أما القليل النادر فكان لديهم موهبة عادية وكانوا أسوياء، واكتسبت هؤلاء عن طريق المصادفة السعيدة التى ربطت اسمهم بهرم مبنى من عمل الآخرين، وأسهموا هم فى الجزء الأخير منه، فقط بالخطوة النهائية الصغيرة التى أوصلتهم إلى القمة.

وجود علاقة ارتباط بين العبقريّة والمرض العقلى أمر يخضع فى نفيه أو إثباته للحقائق الواقعية. وهذه يشترط فيها أن تكون إحصائية، وربما أن تراعى أيضا سلسلة النسب.

وقد تركز الاهتمام فى هذا القرن على مشكلة مشابهة، وهى مشكلة العلاقة المحتملة بين القدرة الإبداعية وعدم الاستقرار العقلى. فمن ناحية، يوجد أولئك الذين يمنعهم افتتانهم بالموضوع من تركه جانبا، ومن ناحية أخرى لم تكن العبقريّة ولا الجنون قابلين بسهولة للتحديد الدقيق. ومع ذلك فإن المرض العقلى يمكن تحديده الآن بالطرق الإجرائية، كما أن المعايير الإجرائية للعملية الإبداعية من الممكن توفيرها.

(٢) العبقرية والفنون :

إن مثل هذه الأفكار تودى بنا إلى النظر فى الأفكار أو التأملات التى قدمت لتفسير الحالات الفردية التى يحدث فيها الاقتران (بين القدرة الإبداعية والمرض النفسى والعقلى) . وفى القرن العشرين، وخاصة بالنسبة للفنانين، دأبت آراء التحليل النفسى على التأثير الشديد فى الناس . لقد فتن الفن لب فرويد الذى انكب مرارا وتكرارا فى الموضوع .

وفى حين أن جالتون رأى أن العبقرية شئ بيولوجى نابع من مصادر خارجية عن الشخصية وتجاربها، كانت وجهة نظر فرويد عن العملية الإبداعية أن القوة الأساسية المحركة لها، كامنة فى داخل الفرد . وقد اعتقد أن الجزء الجوهرى من إبداعات العباقرة إنما يرد عليهم فى شكل إلهام، نتيجة للتفكير اللاشعورى . لقد امتلك الفنانون (دائما) المقدرة على اقتناص للصور والمشاعر الضائعة (ذكريات) طفولتهم، لأنهم كانوا أقل تقيدا بالمظاهر القمعية للحضارة، كما كانوا يتمتعون بقدر أكبر من "المرونة فى التصرف مع القمع" . وقد عبر فرويد عن الموقف "الكلاسى" فى كتابه "النظرية العامة لأمراض العصاب" الذى جاء فيه :

"إن الفنان إنطوائى من حيث المبدأ، وهو ليس بعيدا عن العصاب . إنه واقع تحت قهر الحاجات الغريزية المتزايدة القوة . وهو يرغب فى أن ينال الشرف والقوة والثروة والشهرة وحب النساء، ولكنه يفتقر إلى الوسائل التى تعينه على إشباع هذه الحاجات" .

والفنان لديه "قدرة عظيمة على التسامى وعلى التراخى بدرجة معينة فى عمليات كبت صراعاته الانفعالية، وبخاصة الإثارات الجنسية المفرطة فى شدتها، بحيث يجد متفلسا لها ويستخدمها فى مجالات أخرى" .

ومن ناحية أخرى، تعكس نظريات فرويد ونظريات تابعيه على وجه الحصر تقريبا، رغبة فى تفسير محتوى الأعمال الفنية وما تتضمنه من رمزية . ولهذا اشتهر نقاد الفن ونقاد الأدب فى هجومهم على التحليل النفسى حتى عندما كانت لديهم رغبة قوية فى التعاطف معه . وقد عنف (روجر فرأى) فرويد وأتباعه فى مقال له بعنوان "الفنان والتحليل النفسى" لأن نظرياتهم فسرت المحتوى بلغة العصاب، ولكنها تجاهلت الشكل والأساليب الفنية المستخدمة لتحقيق الشكل، وفى هذا يقول فرأى :

"إن المبدع، من حيث هو فنان، أهدافا أخرى غير رغبته. والبهجة التى يشعر بها ليست لذلك مرتبطة مباشرة باليبيدو. إنها، على العكس من ذلك، مستمدة من تأمل العلاقات الشكلية وما بينها من توافق". تلك هى مظاهر الإبداع الفنى التى تتوقف عليها فى المقام الأول آية العظمة. والدراسة القصيرة التى وضعها فرويد عن ليوناردو على سبيل المثال، تروى لنا شيئا عن السبب الذى ربما أدى بذلك الفنان إلى اختيار مادة موضوعه، ولكنها لا تفسر مطلقا انطباع العظمة الذى نتلقاه منه. وقد وجد تريلينج فى كتابه "الفن والعصاب"، أن:

من المدهش أنه (أى فرويد) فى أعماله الأولى قد أخطأ فى معاملة الفنان على أنه عصابى يهرب من الواقع عن طريق إشباع بديل.

بل إنه عاب على فرويد "أنه افترض أن يكون محتوى عمل الفنان عصابيا، لأن الفنان نفسه عصابى" وكانت النتائج التى اتفق فيها مع النتائج التى توصل إليها فرائى هى:

"مع التسليم بأن الشاعر عصابى على نحو فريد، فما هو بالقطع غير عصابى ولا يوحى فى الواقع بشئ سوى الصحة، هو قدرته على استغلال عصابيته. ومن الخطأ - فيما اعتقد - أن نبحث عن جذور مقدره للفنان ومصدر عبقريته فى العصاب".

إن الانفعال هو الصفة الرئيسة التى تربط أنواع العصاب النفسى للشخصيات التى يتم وصفها بالعمل الخلاق الذى يؤدى إلى الشهرة: "وينشأ العصاب النفسى من صراع قائم بين الرغبة وبين محاولة تحقيقها. وكلما ازدادت الرغبة اتقادا، زاد احتمال أن يؤدى إحباطها إلى العصاب النفسى. وقد ييسر هذا بدوره تحقيق الرغبة أو يؤدى دور الحافز للتطهير العقلى النفسى الذى ينتج عنه عمل خلاق عظيم. ويبدو أن هذا هو أساس العلاقة بين العصاب النفسى وبين الإبداع. وباختصار، يمثل العصاب النفسى انفعالا مكبوتا. ويعبر العمل الخلاق العظيم عن انفعال متحقق".

هذه العبارات الفرويدية العصرية المتمزعة تقدم عرضا واضحا لنظرية التسامى (الإعلاء) والتطهير. لكن الانفعال لا يزيد على كونه نوعا من الدافع الشديد الإلحاح مع نشاط قوى للدافع الجنىسى. غير أنه كان يعنى أكثر من ذلك، إذ يمكن أن يتضمن الانفعال الطاقة والحماسة اللتين يمكن بحق أن تكونا حليفتين للعظمة، بشرط أن يمتزجا فحسب (بقوة) الحكم التى تستبعد علاقتهما بالجنون.

ويمكن تقديم ميزة أخرى جديدة يمكن أن تحسب للشخص المبدع الذى يكون عصابيا. "إن العمل الخلاق يصدر عن العناصر النشيطة والصحية للشخصية. والسمات السيكوباتية يمكن أن تضاف على العمل طابعا أو لونا خاصا، وعمليات التثبيت العصابية قد تؤدي إلى اختيار مادة من نوع خاص للعمل عليها وتطويرها، وقد تجبر الأحرار والمحن الفنانين على البحث عن طريقة خلاقة تساعد على التطهير. لكن العمل الخلاق نفسه ينبثق من القوة لا من الضعف".

وقد يزيد من إغراء النظرية الدينامية النفسية، تلك التفسيرات التى تقدمها عن محتوى عمل من أعمال الفن وما فيه من رمزية، ولكن هذه النظرية تغفل فشلا نريعا فى تفسير روعة الإنجاز، ولعل من الخير لأنصارها أن يركزوا على البحث عن تفسيرات سيكولوجية لعملية تدفق الطاقة المنتجة التى تقع فى صميم القدرة الإبداعية والعبقرية. ويمكننا أن نستفيد من معرفتنا بالسبب الذى يجعل بعض الناس يباشرون أى شئ يصنعونه فى حياتهم بطاقة أعظم بكثير من طاقة غيرهم. والإجابة على أية حال يمكن أن تتوقف على عوامل أيضا - (أى متعلقة بالتحول الغذائى) - مثلما تتوقف على عوامل نفسية - وإذا كنا نسعى إلى زيادة عدد العباقرة فينبغى أن نحاول زيادة عدد أصحاب الطاقة الخارقة من الناس.

وحتى الآن كان الاتجاه العام للتفسيرات هو البحث عن الكيفية التى يمكن أن تؤدي بالاضطراب العقلى إلى إحداث استجابة خلاقة. على أنه يمكن الذهاب من ناحية أخرى إلى أن سهم السبب فى أى ارتباط قد يرد فى اتجاه عكسى. فالعباقرة قد يتبنون أساليب فى الحياة تؤدي بهم إلى إهمال أنفسهم من الناحية المادية والجسدية، وذلك قد يوصلهم إلى المرض العقلى، وقد توسع البعض مؤخرا فى هذه الفكرة، وطرحوا على سبيل المحاولة عدة افتراضات بأن الإبداع يجلب للمرض العقلى، كنتيجة حتمية له.

إن هذه الفكرة رومانسية أكثر مما هى فكرة عقلانية مقبولة. ورغم أن أحداث الحياة والخبرات النفسية قد تكون أحد شروط الفن، فلا يجد شاهد موثوق به يمكن أن يقنعنا بأن العكس صحيح.

ويمكن تقديم تفسيرات أخرى توضح السبب فى احتمال توجه إنسان - يحس بأن مرضا عقليا يتهدده - إلى التعبير الفنى، والسبب فى احتمال تفضيله الفن على بعض الأشكال الأخرى من النشاط، كما تفسر أيضا - فى حالة وجود مواهب كبيرة لديه - إمكان أن ينتج فنا عظيما.

إنه أولا سيستمد من الفن بعضا من الخصائص الست التى وصفها لواجه أيشباوم بأنها تكون واضحة عندما نواجه عملا عبقريا . فهناك فى المقام الأول خاصية "الإغواء" أو الجذب، وخاصية الغرابة والغموض الغيبى أو "الرغبة"، وخاصية إثارة العجب والاندھاش والعلو فوق التجربة البشرية، وهى جميعا يمكن أن تتملكه وتستولى عليه، وربما عكست ما يحسه فى نفسه بصورة غامضة . وبهذا يمكن أن يقنع نفسه بأنه لا يمكن أن يكون مجنونا كما توهم . وربما يتجه إلى شكل من أشكال التعبير، مدفوعا بالرغبة فى محاكاة (عمل فنى معين) أو بالتعلق الشديد به .

وهناك ثانيا انطباع عن الفن قد يشد الفرد الذى يؤرقه الإحساس بصعوبة التعبير الدقيق بسبب مرض عقلى . وحيث إن أى عمل من أعمال الفن لا يوصل الرسالة نفسها إلى أى شخصين، فإن هذا لا ينم عن أن مبدع هذا العمل تواجهه أية صعوبة فى الاتصال . وقد يكون هذا الشعور مريحا .

وهناك ثالثا الحقيقة التى تقول إن "الاستمتاع بالفن مسألة شخصية" . فالإشباع الناتج عن الإبداع الفنى لا يحتاج إلى وجود الآخرين . ولهذا فهو (أى الإشباع) ملائم بوجه خاص للفرد الذى يهزه ويقلقه مرض عقلى .

ومن أجل هذا يمكن أن يتجه الموهوبون إلى الفن بسبب الجنون أو بسبب إحساسهم بقرب وقوع الجنون ولكنهم يحققون عظمتهم رغم الجنون وليس بسببه . ومرضى العقول لم يوهبوا قوى إضافية لا يمتلكها الناس العاديون . وهم لا ينجزون تراكمات خارقة من الأفكار، وهم لا يظهرون قوة خلاقية كاملة أو حماسة أو انفعالا . إنهم على النقيض من ذلك كله أناس ضعيفو القدرات، والعمل الخلاق ينشأ عن قوة لا عن ضعف .

وتأمل العلاقة بين العبقرية والاضطراب العقلى لا يكتمل دون أن نسأل عما إذا كان من الممكن أن نكتشف - وليكن فى التصوير - أن الفنان كان مجنونا .
والسؤال : هل يكشف الفن سر الإنسان؟

لقد كتب فلوبيير عام ١٨٧٥، يقول: "المثل الأعلى للفن عندى هو أن الإنسان لاشئ، وأن العمل هو كل شئ" . ولقد عبر عن الطرفين المتناقضين لهذا رأى إثنان من أكبر العباقرة المؤثرين فى الحياة الأدبية للقرن العشرين . فلقد كتبت فرجينيا وولف تقول: "كل سر من أسرار نفس الكاتب، كل تجربة من تجارب حياته، كل خاصية من خواص عقله، كلها مكتوبة على نطاق واسع فى أعماله" . كما كتب تى . إس . إليوت:

يقول: "كلما ازداد الفنان اتقاناً، انفصل الإنسان الذى يعانى بداخله انفصالا تاماً عن العقل الذى يبدع".

ويتبقى بعد الإسهام فى الحديث عن "العبقريّة" السؤال الخطير والحيوى التالى:

ما علاقة التفكير بالعبقرية؟!

بمعنى:

هل الإنسان العبقري يستطيع أن يفكر بطريقة صحيحة؟!

مهما كانت المزاعم بأن الإنسان العبقري شخص غير طبيعى، وأن تصرفاته غير مسئولة، وقد تصل إلى حد الجنون، فإن هذه المزاعم باطلة فى أساسها. وليس هناك ما يثبتها ويؤكد صحتها. القضية - باختصار - تتمثل فى عدم التوافق الذهنى الذى يتبعه عدم توافق شخصى بين العبقري وبين الآخرين. فالعبقري يكون مستوى نكاهه مرتفعاً جداً، لذلك يفكر فى أمور نادرة الحدوث، وفى أشياء غير متوقعة بالنسبة للناس العاديين، لذلك - غالباً - لا تكون بينه وبينهم لغة حوالر مشترك، ويدعى الآخرون بأنه أحمق، ولا يفهم، وأن كلامه هو الهذيان بعينه، وأن تصرفاته وممارساته يصاحبها الغباء مقروناً بالجنون. الحقيقة، العيب ليس فى العبقري، وإنما المعضلة الأساسية فى الآخرين الذين لا يفهمون مقاصده، ولا يتصورون إمكانية تحقق أقواله وأفعاله يوماً ما. ولأن نسبة كبيرة من الناس لا تنتم بالصبر، ولا تحاول أن ترهق نفسها فى التفكير، أو لأنها لا تمتلك أصلاً مقومات التفكير التقدمى المتشعب، فإنهم بسهولة متناهية يطلقون على الإنسان العبقري أوصافاً لا تمثله من قريب أو من بعيد، والأكثر من ذلك إنهم يرفضون أفكاره، ولا يقبلون أعماله، التى مع مرور الحياة تثبت صلاحيتها ونفعها للبشرية. فكم من الإنجازات الرائعة التى حققها العبقرة رفضت تماماً، وسفّهت قيمتها فى حياتهم، ولكن بعد وفاتهم بعشرات السنين ثبتت روعة تلك الإنجازات للبشرية جمعاء.

وعندما يشعر العبقري بأن الآخرين لا يدركون قيمة أعماله، يصاب بخيبة الأمل التى تجعله غير متوافق معهم على المستوى الشخصى، وبذلك ينعزل العبقري عن الآخرين، ويضع كل همه فى أفعاله، ويوجه طاقات إبداعه نحو تحقيق المزيد من الاختراعات والإنجازات غير المسبوقة. ويفعل العبقري ذلك، وهو يدرك تماماً أن المشكلة الحقيقية لا تخصه شخصياً، وإنما تكمن فى الآخرين، بسبب المفجوة الهائلة والهوة الواسعة بين تفكيره وتفكيرهم، وبين مقاصده ومقاصدهم، وبين أهدافه وأهدافهم،

وبين طموحه وطموحهم، وبين توجهاته وتوجهاتهم، وبين مساعيه ومساعيهم، وبين نقطة النهاية بالنسبة له ونقطة البداية بالنسبة لهم . ويظل العبرى متماسكا، لأن لا يوجد شئ يهم، طالما أنه مستمر فى إبداعاته الرائعة، وطالما لا يوجد ما يعكر صفوه وهودء، وطالما أن الإمكانيات متوافرة لتحقيق ما يصبو إليه . ولكنه، فى النهاية قد ينهار، ويصاب بالجنون فعلا، ليس لأن تفكيره فى الأساس كان مختلا، ولكن بسبب الضغوط المجتمعية التى تضغط عليه بطريقة قاسية، وتقل من شأنه كإنسان، ولا توفر له الإمكانيات المادية التى يحتاج إليها . يخل تفكير العبرى، ليس بسبب عيب فيه، ولكن بسبب تداعيات تجره إلى متهاتات مظلمة، لا يستطيع أن يخرج منها، مثل: التقليل من شأنه على المستوى الشخصى، وغض البصر وإهمال الأعمال التى يحققها، والهروب - وأحيانا التهرب - منه عن طريق الكذب والوعد غير الصادقة، ووضعه فى مواقف صعبة إنسانيا واجتماعيا واقتصاديا، ومقاومة أفكاره وتسفيهها . هنا، يشعر العبرى أنه يصرخ فى الظلام، وأنه يسبح ضد التيار، وأنه يتكلم لغة لا يفهمها مجتمعه، لذلك فإنه يقاوم هذه الأوضاع المتخلفة السوداوية بشدة، ولكنه - للأسف - قد ينهار فى بعض الحالات، فلا يرحمه المجتمع أو يشفع له، وإنما تزداد له الطعنات القاتلة، إلى أن يسقط على الأرض ملطخا فى دمانه، وذنبه الوحيد أنه شخص عبرى .

ومما يذكر، فى وقتنا هذا، رغم الإنجازات العظيمة التى تتحقق يوميا، فإن عدد العباقرة يتناقص، لأنه طبيعة الأعمال فى هذا الزمان تعتمد على العمل التعاونى من خلال فرق العمل، ولذلك تنوب عبقرية أى إنسان وسط أفكار فريق العمل الذى يعمل معه، وبذلك انتفت بدرجة كبيرة فكرة اتهام العباقرة بحيود تفكيرهم وجنون أفكارهم .

خامسا : التفكير فى ضوء مقومات الحياة الإنسانية :

تقوم الحياة الإنسانية على مجموعة من المقومات، وحتى تكتسب هذه الحياة معناها الرائع، يجب أن يفكر الإنسان فى تلك المقومات من منظور ما يجب عمله، لتحقيق رفاهية الإنسان وسعادته . ومما يذكر أن مقومات الحياة الإنسانية عديدة ومتعددة، ومن الصعب حصرها وتحديدتها فى مصدر واحد، لذلك ننوه إلى أننا سوف نقدم - فقط - نماذج لتلك المقومات مع إبراز دور التفكير فى تحقيقها، وتأكيدا بما يحقق متطلبات وحاجات الإنسان الأساسية، اللازمة والضرورية له ليستطيع مواكبة العصر ومعاشته، فى ضوء المتغيرات التى تموج بها الحياة الإنسانية نفسها، وتتمثل

أهم مقومات الحياة الإنسانية التى يجب أن تهتم بها المدرسة، وأن يتمحور حولها التفكير من خلال المناهج الدراسية، فى الآتى:

(١) التواصل الإنسانى :

توجه مدارسنا جل اهتمامها نحو تنمية المهارات للتواصلية لدى الطلاب وبخاصة مهارة القراءة . وهى بذلك تنسى أو تتناسى أن مجتمعنا دخل عهدا جديدا يتسم بتعدد الاتصال ووسائله، وبذا تكون قراءة الكتب المقررة ليس إلا نوعا واحدا من أنواع المطالعة . وعليه، فإن إهمال أنواع المطالعة الأخرى يعنى تخريج أجيال ناقصة الثقافة . إن حرمان الطلاب من قراءة المجلات والصحف يعنى حرمانهم من مصدر كبير من مصادر المعرفة فى عصرنا هذا، لذا يجب أن تهتم مدارسنا بتدريب الطالب على قراءة المجلات والصحف قراءة تحليلية نقدية تقوم على أساس التفكير فى مغزى ومضمون ما بين السطور بالنسبة لما يقرأه كما يجب تعريف الطالب بطرائق الحصول على تلك المجلات والصحف .

أيضا، قد يأخذ التواصل فى أغلب الأحوال شكلا مكتوبا، لذا تعد القدرة على الكتابة جانبا مهما من قدرة الإنسان على التواصل، بالإضافة إلى ذلك، تعتبر الكتابة فنا من الفنون اللغوية التى تمد الفرد بالقدرة على توضيح آرائه، ونقل أفكاره إلى الآخرين، لذا يجب النظر إلى فن الكتابة كمنهج من مناهج الدراسة النظامية .

بالإضافة إلى القراءة والكتابة هناك أيضا وسائل التواصل السمعية والبصرية ذات الأهمية عظيمة الشأن فى حياتنا الآن . فالتلفاز - مثلا - وسيلة تواصل شائعة الاستعمال تؤثر إيجابا وسلبا فى الحياة اليومية العادية للملايين، كما أنه يستخدم فى المدارس فى تعليم ونماء معارف الطلاب، وأيضا فى تطوير أفكارهم بأساليب أفضل، كذلك تعتبر الأفلام السينمائية مصدرا مهما من مصادر التسلية والمعلومات على حد سواء، لذلك يجب توجيه تفكير المتعلمين على قوة تأثير الرسائل التى تحملها وسائل التواصل السمعية والبصرية فى حياتهم الحالية والمستقبلية على حد سواء .

إن ما يسمى بمحو الأمية ليس إلا محاولة لإيجاد القدرة لدى الدارسين الأميين لتحصيل المعلومات وتوصيل الأفكار بطرائق متعددة، لأن استخدام الفرد لكل ما يملكه من إمكانات وقدرات بنطاق واسع هو الذى يعكس حقيقة ما نعنيه بالتعلم والتواصل، ولأن توظيف الفرد لألياته الذهنية التفكيرية يحدد منهجيته الحياتية التى قد تتعدى حدود

محو أمية القراءة والكتابة والحساب فقط، لتصل إلى حدود محو أميته الثقافية، وأحياناً اللغوية غير القومية والكمبيوترية.

بالإضافة إلى ما تقدم، وهب الله الإنسان القدرة على امتلاك مهارة التفكير التي تساعده على تحقيق مهارات التواصل مع الآخرين، التي هي في الأصل موجودة بالفعل عندهم، لذا لا يجب أن تغفل المدرسة ذلك الأمر الخطير، وإما يجب أن تنميه بكافة جهودها، وأن تؤكد عن طريق التركيز على اكتساب وتطوير مهارات التفكير من خلال المواد الدراسية المقررة، وبخاصة أن الطالب الآن يعيش في عالم متحرك مباشر فيه علاقات فردية خاصة مع عدد كبير من الأنماط البشرية المتنوعة، لذا فإن تدريبه على مهارات التواصل أصبح ضرورة واجبة ولازمة لأنه يحتاج إليها في حياته العملية.

وتتطلب السيطرة على مهارات التواصل مهارات جانبية أخرى، مثل: القدرة على الإصغاء إلى الآخرين، واستيعاب المعلومات، وفهم أفكار الآخرين ومشاعرهم، كما أنها تتطلب قدرة الفرد على التعبير عن أفكاره ومشاعره الخاصة وإيصال تلك الأفكار والمشاعر إلى الآخرين. أيضاً، تتطلب مهارات التواصل القدرة على تحليل المشاعر، والقدرة على إجراء المفاوضات، وتسوية الخلافات، وحل المشكلات بالاشتراك مع الآخرين حلاً سلمياً عقلانياً يقوم على نبذ المشاحنات التي لا ضرورة منها، وتأكيد أهمية السلام.

ومن ناحية أخرى، تهدف التربية ضمن ما تهدف، إعادة بناء شخصية الفرد كي يكون إنساناً يتقبل أية تغييرات تحدث خلال أية فترة من فترات التغيير الاجتماعي والثقافي التي يمر بها أو يعيشها المجتمع، ويتقبل أيضاً أفكار الآخرين، حتى وإن تعارضت مع أفكاره وآرائه الشخصية. ولكي يكون الإنسان بالفعل إنساناً جديداً، ينبغي أن يكون جديداً في طريقة تفكيره، وفي تعامله مع الآخرين، وفي تقديره للمسئولية. أيضاً، ينبغي أن يأخذ بما يتطلبه المجتمع من إجراءات جديدة. ويتطلب تحقيق ما تقدم، أن يكون الفرد مزوداً بأساليب فنية معينة، تتناسب ونوع العمل المزمع أن يؤديه، أو نوع المسئولية التي ستلقى على عاتقه. وحيث أن إخضاع العلاقات الإنسانية إلى إجراءات ميكانيكية أو إلى عمليات آلية، ليس عملاً سهلاً. لذا يجب اللجوء إلى طرق وأساليب تفكير معقولة ومقبولة يمكن الاعتماد عليها لتحقيق ما تقدم. وأحد الحلول المفيدة في هذا المجال هو عقد الندوات والاجتماعات التي من خلالها يمكن أن تنبثق

التفكير فى علاقته ببعض الصناعات الإنسانية

أنسب وأجدى الطرق التى يجب إتباعها والأخذ بها لتزويد الفرد بالأساليب الفنية المطلوبة التى تسهم فى بناء الإنسان .

فى ضوء ما تقدم، ينبغى توجيه تفكير المتعلمين إلى مختلف الأساليب الفنية التى تؤكد أهمية الأخذ بوسيلة الحجة والإقناع كوسيلة مثلى للتواصل بين الأفراد، والتى تؤكد كذلك ضرورة تنمية الفكر الخلاق المبدع الذى يسهل ذلك التواصل، وذلك لأهمية هذه الأمور، ودورها الفعال فى بناء الإنسان .

(٢) التكنولوجيا فى حياة الإنسان :

لقد صنع الإنسان التكنولوجيا لتوفر له جهده العضلى الكبير الذى يبذله فى الأعمال التى يقوم بها، ولتضمن له تحقيق فائض مادى واقتصادى عظيمين يسهمان فى تحقيق مستوى حياتى أفضل وأرفع . إذًا، التكنولوجيا نافعة ومفيدة للإنسان، وتسهم فى تقدمه، وتحقق رجاءه ورخاءه، وتجعله يصل إلى أمور صعبة، كانت مجرد طيف ووهم فى خيال الإنسان، أو كانت - فى أحسن الأحوال - أمنيات يأمل الوصول إليها .

ولكن مع تعاظم شأن التكنولوجيا، توحشت ولزاد تأثيرها وهيمنتها على حياة الإنسان، بحيث باتت تؤثر بشدة فى القرارات المصيرية التى تحدد هوية مصيره وكيونته، ووضعيه حاضره ومستقبله، على حد سواء . وللأسف، رغم أن الإنسان صنع التكنولوجيا، فإنه لم يستطع فى حالات كثيرة أن يهذبها، وأن يسيطر عليها، والأكثر من ذلك أصبح الإنسان نفسه تابعاً لها، تقوده كيفما تشاء .

والسؤال :

إذا كان من المستحيل غض البصر عن التكنولوجيا واستعمالاتها وتوظيفها فى شتى المجالات والميادين، لأن ذلك يمثل ردة عظيمة الشأن، قد تقود الإنسان إلى السقوط فى مناهات التخلف، وقد ترجع به إلى عصور الظلام، فما الذى يجب أن يفعله الإنسان للخروج من تحت عباءة التكنولوجيا، ليهرب خارج نطاقها المتوحش؟

للحقيقة، ليس أمام الإنسان غير تفكيره الحر للخلاص، ليستطيع أن يتعامل مع التكنولوجيا، وفقاً لإرادته الخالصة، وبما يكفل له أمنه وسلامه، وبما يتيح له اكتساب خبرات جديدة ومتجددة مفيدة ومطلوبة، وبما يجعله يتواجد فى إطار اجتماعى وأخلاقى جديدين .

وبعامة ٠٠٠ إن العلم والتكنولوجيا لهما تأثيرهما المباشر على شتى جوانب الثقافة . فمثلا، تتمثل أهم النتائج التي ظهرت على أنقاض الأعمال القديمة، والتي حدثت بفعل الاختراعات والاكتشافات، فى الآتى:

- تقريب المسافات بين البلدان بفعل وسائل النقل الجديدة .
- الهجرة من الريف إلى المدينة .
- نشوء المدن الجديدة ونموها السريع .
- خلق مفاهيم جيدة فى علاقات الناس بعضها ببعض .
- تغير أسلوب الحياة والروابط بين أفراد الأسرة الواحدة، وزعزعة وظائف الأسرة .
- سن وتشريع القوانين الخاصة بالعمال وبنقاباتهم .
- انتشار عدد كبير من الأعمال، ونشوء أعمال جديدة .
- استخدام الأسلوب العلمى فى التفكير، وانتشار مفاهيم التجريب .
- اتخاذ أشكال جديدة للحرب، قد لا تقوم أحيانا على المواجهة العسكرية بين الدول .
- استحداث وابتكار :

- وسائل علاج جديدة، وبخاصة للأمراض المستعصية .
- أساليب إدارة جديدة للمصانع والمؤسسات المختلفة .
- طرق تدريس جديدة، وتقنيات تربوية تعليمية حديثة .

أن التغييرات السابقة تستوجب أن يترك الفرد العنان لتفكيره الحر، الذى يتسم بالموضوعية والعقلانية، والذى عن طريقه يدرك الفرد حقيقة تلك التغييرات، التى تتطلب تغييرا لعناصر الثقافة القديمة، واستبدالها بعناصر ثقافية جديدة، وبخاصة أن التغيير أصبح الآن مقوما من مقومات حياتنا العصرية، وهو يعم جميع نواحي الحياة الإنسانية . ولكن، على الرغم من أنه لا توجد حقيقة ثابتة غير حقيقة التغيير التى تحدث فى شتى مناحى الحياة، فإن التغيير فى حد ذاته يعد نسبيا، لذلك فإن ما يحدث فى مجتمع ما يختلف عما يحدث فى مجتمع آخر، فى عمقه واتساعه وسرعته، وذلك بالنسبة لقبول أو رفض أى ظاهرة من الظواهر الجديدة . ورغم ما تقدم، فإنه يمكن تأكيد أن ما كان مناسباً فى الماضى، قد لا يصلح للعصر الحالى أو للمستقبل . لذا، يجب تعديل مسارات الإنسان وتطويرها بحيث تتحرر مما علق بها من غبار الماضى من وسائل واتجاهات قديمة، ثبت عدم جدواها، أو ثبت قلة قيمتها ومحدودية نفعها . أن

تحقيق ما تقدم، يمكن التلميذ من السيطرة على مهارات التعامل مع التكنولوجيا المتقدمة، ويجعله يساير بسهولة التطورات الحديثة فى العلم، وفى تطبيقاته العملية الدائبة التغيير والتنوع.

لقد ألقى دخول الإنسان عصر التكنولوجيا الذى يتصف بالثورية والتعقيد، على عاتق المدرسة بمسئوليات جسيمة، وواجبات عظيمة الشأن، من أجل تطوير تفكير المتعلمين، بما يسهم فى تحقيق الآتى:

- تعليم الطلاب كيفية مواجهة هذا العصر، ومقابلته بكل إيجابياته وسلبياته.
- مد الطلاب بالأساليب والوسائل التى تمكنهم من التعايش بيسر مع عصر يتسم بالتعقيد فى جميع مجالاته وميادينه.
- توعية الطلاب بما تفعله الآلة، وما تحققة التكنولوجيا من إنجازات.

ومن ناحية أخرى، فإن غالبية الأفراد فى عصرنا الحالى يتصفون بالأمية من الناحية التكنولوجية، وفى أحسن الأحوال لا يعرف المتعلمون منهم إلا أقل القليل عن طبيعة عمل المكائن والآلات، وذلك يقلل من كفاءتهم فى التعامل مع هذه الأدوات، كما يجعلهم فى أغلب الأحيان لا يشعرون بالارتياح إلى التعامل مع الآلة بشكل عام.

وفى المقابل يجب أن تعمل المدارس بجدية ووعى وكفاءة من أجل تطوير مسارات تفكير الطلاب، بما يمكنهم من إتقان التعامل مع التكنولوجيا والسيطرة عليها. وفى سبيل تحقيق ذلك، ينبغى تشجيع الطلاب على التفكير فى كيفية عمل المكائن والآلات، التى باتت جزءاً منتظماً لا يتجزأ من واقع فهمهم العام لطبيعة العصر ومتطلباته.

أيضاً، يجب إبراز بعض المشكلات التى تتبثق نتيجة الدور الذى تلعبه التكنولوجيا فى حياتنا. إن هذا الموضوع يثير تساؤلات كثيرة وخطيرة، إذ ينور جدل عظيم الشأن حول طبيعة وحدود الدور الذى يجب أن تؤديه التكنولوجيا فى حياتنا. فجد من يعتقد أنه من الضرورى الحد من الدور العريض الذى تلعبه التكنولوجيا فى حياتنا الآن إذا ما أردنا استمرار بقاء كل من البيئة الطبيعية والجنس البشرى، وهؤلاء يحذرون من مغبة التغاضى عن هذا الموضوع، وذلك بسبب استنفاد المواد الخام الموجودة حالياً فى العالم والضائقات التى ستعترى العالم مستقبلاً بفضل الزيادة الرهيبة فى الإنتاج، وبفضل المبالغة فى استخدام التكنولوجيا. ويميل أصحاب هذا الرأى إلى تأكيد أهمية الاستفادة من تكنولوجيا محدودة ومناسبة لا تغفل دور الجهد البشرى الذى

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكشاف

يعطى الحياة الإنسانية معناها الحقيقي، ولا تمارس ضغوطاً هائلة على البيئة الطبيعية ذاتها. ومن ناحية أخرى، يرى البعض الآخر أن التقدم المنتظر في عالم التكنولوجيا سيواكبه بلا شك حياة أفضل وأسعد للأفراد لأنه سيتيح الفرصة لهم لحياة ترتكن على أساليب عمل تكنولوجى أكثر تقدماً، تؤدي إلى تحسن ملموس في البيئة الطبيعية. ويؤكد أصحاب الرأي الأخير ضرورة استمرار العمل في المشاريع التكنولوجية الكبرى التى ستحقق ازدهاراً أكبر على جميع المستويات.

وبعامة يمثل الاستيعاب والتمكن التكنولوجى معضلة كبيرة يجب النظر إليها كواحدة من أهم مشكلات عصرنا الحاضر، لذا يجب الحسم المنطقى السريع فيها، إذ أن حياة البلائين من البشر وقدرهم يعتمدان على مثل هذا الحسم أو الحل لهذه المسألة. لذا يجب مراعاة الأمور التالية:

* التفكير فى كيفية نقل كل ما يستجد فى المجتمع من مواقف ومشكلات وحاجات وأدوات جديدة، نتيجة ارتياد الإنسان للأفاق التكنولوجية المتطورة، إلى التلاميذ فى أسلوب علمى جميل.

* التفكير فى مدى وحدود انعكاس التقدم العلمى والتكنولوجى فى ما ينتج عنه من معينات تعليمية وتقنيات تربوية جديدة لم يكن لها وجود من قبل، ومعرفة أساليب تعميمها بما يتوافق مع قواعد وأصول التعليم الفعال.

* التفكير فى ماهية الوظائف والمهن التى ظهرت نتيجة التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يعيشه العالم الآن، وما يترتب على ذلك من التخصص أصبح أمراً لا بد منه. وعليه، يجب التفكير فى مختلف الميادين العلمية، التى تساعد على فهم واستخدام الوسائل، والأدوات والمنتجات الصناعية والزراعية، وغيرها فى الحياة.

* التفكير فى الطرق والأساليب العلمية المختلفة التى تسهم فى إكساب المتعلمين الأسلوب العلمى فى التفكير. وعند تحقيق ما تقدم، ينبغى مراعاة قدرات المتعلمين، ومستواهم الفكرى والعلمى، وإمكانات البيئة التى يعيشون فيها.

* التفكير فى ما ترتب على دخول بعض العناصر الثقافية الجديدة لمجتمعنا نتيجة الثورة المعلوماتية، وما أدت إليه هذه العناصر إلى إكساب الأفراد بعض الصفات، والعادات، والمهارات، والاتجاهات الجديدة. لذا يجب التفكير فى الفرص العديدة والمتنوعة، التى تمنح الإرشادات الخاصة التى تساعد المعلمين على توجيه المتعلمين والإشراف عليهم، وذلك عن طريق دراسة خصائص التغيرات التى

تحدث فى المجتمع، ومدى انعكاس هذه للتغييرات على الفرد والمجتمع. وأيضاً عن طريق نهضة الفرص اللازمة، من أجل قيام المتعلمون بربط ما يدرسون به بما يجمعونه من حقائق، ومعلومات، عن مظاهر التغيير الجوهرى فى المجتمع على نحو يبرز أمامهم هذه المظاهر، وطبيعتها، واتجاهاتها، ومداها وأثرها فى حياة المجتمع.

• التفكير فى الطرق والأساليب العلمية المختلفة التى تسهم فى إكساب المتعلمين الأسلوب العلمى فى التفكير. وعند تحقيق ما تقدم، ينبغى مراعاة قدرات المتعلمين، ومستواهم الفكرى والعلمى، وإمكانات البيئة التى يعيشون فيها.

• التفكير فى بعض العناصر الثقافية الجديدة لمجتمعنا، نتيجة الثورة الصناعية وما بعد الحديثة، وما أدت إليه هذه العناصر إلى إكساب الأفراد بعض الصفات، والعادات، والمهارات، والاتجاهات الجديدة.

• التفكير الذى لحق بقطاع الزراعة على المستويين: العالمى والمحلى كنتيجة طبيعية لتقدم العلم والتكنولوجيا، أيضاً الوضع الزراعى على المستوى المحلى، بهدف دراسته، وشرح أبعاده، وتشخيص الأمراض والمعوقات التى تحول دون تحقيق أهدافه. أيضاً، التفكير فى الدوافع التى تسهم فى التعرف على بعض جوانب حياة سكان الريف، والصعوبات التى تصادفهم، وفى وضع الحلول المناسبة للتغلب على هذه الصعوبات. ومن المهم أن يتمحور التفكير حول التوجيهات اللازمة والضرورية، من أجل استعمال سكان الريف للوسائل التكنولوجية الحديثة، التى ترفع مستوى الإنتاج الزراعى من حيث الكم والنوع. ولتأكيد أهمية التعليم الزراعى، يجب التفكير فى الأساليب التى تساعد على الدراسة والبحث والتطبيق لكل جديد من الوسائل التكنولوجية الزراعية التى يمكن أن تكون عاملاً مساعداً فى النهضة الزراعية.

• التفكير فى أساليب تطور وتقدم قطاع الصناعة فى حياة الأمم والشعوب، وذلك عن طريق دراسة تاريخ الصناعة ككل، من حيث نشوئها وتطورها، مع التركيز على تاريخ الصناعة القومية وإسهامها فى رفع المستوى الاقتصادى للأفراد، وفى رفع الحياة الاقتصادية العامة.

• التفكير فى الحلول الناجحة والمناسبة لمقاومة الآفات الاجتماعية المفزعة والمزعجة التى قد يعانى المجتمع من بعضها (المرض، الفقر، الجهل، إيمان المخدرات،

التعصب: القبلى والطائفى، العنصرية)، لما لها من تأثيرات سلبية خطيرة. أن هذه الآفات قد تعطل الاستفادة بالإنجازات التكنولوجية عظيمة الشأن، وذلك يحرم الإنسان من فوائد عديدة. لذا، بعد التفكير فى تلك الآفات وتشخيصها، يجب أيضا التفكير فى العواقب الوخيمة التى تترتب على تفشيها وانتشارها، وفى وصف الحلول المناسبة والفعالة للتخلص منها، والقضاء عليها.

(٣) التعاون الإنسانى :

يقول "أحمد عبد المعطى حجازى": "لقد بدأت العولمة منذ زمن طويل، ولم يعد باستطاعة أمة أن تعزل العالم، ولم يعد التاريخ الإنسانى دوائر مغلقة أو تيارات مستقلة منفصلة، وإنما أصبح حركة واحدة أو تيارات متقاطعة متصارعة داخل تيار واحد يصنعه البشر جميعاً، ويتأثرون به جميعاً واتصال التجارب البشرية أو تفاعلها لا يتحقق فى حالة التوافق والتفاهم وحدها، بل يتحقق كذلك فى حالة التناقض والاختلاف التجارب البشرية تتواصل، وتتفاعل، وتبدأ بداية مشتركة، وتنتهى نهاية مشتركة، وهذه حقيقة منهجية لا بد أن نتمثلها ونحن نراجع تجربتنا الماضية، ودرس لا بد أن نتعلمه ونكف عن محاولة الانغلاق فى ماضينا الذى لم يكن هو الآخر مغلقاً، بل كان حافلاً بـ (الفاثحين) من كل جنس ولون!" .

هنا انتهى حديث "أحمد عبد المعطى حجازى"، وبتحليل هذا الحديث، وقراءة ما بين السطور لتحديد المضامين الخفية وغير الصريحة بين ثناياه، نجد الآتى:

* من الصعب أن نعيش الدول والجماعات، أو حتى الإنسان على المستوى الفردى بمعزل عن الآخرين . وطالما أن العزلة باتت صعبة جداً، فلا بد من تحقيق التوافق والتواكب، حتى لا تحدث صدامات وانقسامات، وذلك يفرض منهجية التعاون كأسلوب واقعى، لا يمكن تجاهله، بعد أن فرض نفسه، على أساس أنه الأسلوب الأمثل لحياة تجعل الإنسانية سهلة وسلسلة وبسيطة .

* قد تحدث خلافات واختلاف بين الناس بعضهم البعض، ولكن ذلك لن يحول - أبداً - دون التقاء البشر بعضهم البعض، وتحقيق التواصل بينهم . وطالما أن التفاعل الإنسانى حقيقة قائمة، فإن التعاون البشرى يكون - أيضاً - حقيقة لها وجودها الفعلى وتأثيراتها المباشرة .

* اجترار أحداث وتجارب الماضى، وتمثلها لن يحل أبداً مشكلات الحاضر، ولن يكون السبيل للانطلاق نحو المستقبل . فالماضى ولى وفات، ولن يعود مرة أخرى، ورغم

ذلك من المهم تلمس خبرات الماضى للاسترشاد بها فى حل المشكلات الحالية أو المتوقع حدوثها فى المستقبل .

• التجربة الإنسانية تجربة رائعة وفريدة فى نوعها، ويتحقق مغزاها الحقيقى عن طريق التّحام البشر بعضهم البعض فى علاقات تعاون قوية ووثيقة . فالحياة الإنسانية، رغم اتساع أوصالها، لن يكون لها معنى حقيقى، دون ممارسة الحياة التعاونية .

• رغم الاختلاف والتباين بين ميول واهتمامات واتجاهات وتوجهات الأفراد بعضهم البعض فى بعض المقاصد والأهداف، فإنهم يشتركون جميعا فى هدف نبيل وواقعى واحد، وهو: "العمل من خلال التعاون المشترك من أجل محاولة تحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته".

والسؤال :

ما أبعاد التعاون الإنسانى الذى يسهم فى تحقيق سعادة ورفاهية الإنسان المأمولة؟

لا يستطيع أى إنسان متحضر، عاقل، متزن انفعاليا أن يعيش بمعزل عن الآخرين، إذ أن الله خلق الإنسان اجتماعيا بطبيعته . لذا، فهو يحتاج فى حياته أن يتعامل مع الآخرين، وبالتالي فهو يحتاج أن يتعاون معهم . وحتى يتم ذلك التعاون فى إطار سليم، يجب أن يتعلم الفرد بعض المهارات والأفكار التى تمكنه من ممارسة نوع من الحياة التعاونية بينه والآخرين .

أن الجنس البشرى بنفسه كان وراء نشوء بعض المشكلات المعقدة التى نتفاقم حداثها يوما بعد آخر، ويحتاج حلها إلى أساليب تعاونية على مستوى عالمى . ومن المشكلات التى فرضت نفسها على العالم، وأصبح التفكير فى حلها بأقصى سرعة، ضرورة لازمة لحفظ العالم من ويلات وكوارث عظيمة للشأن، نذكر من هذه المشكلات، مشكلة التلوث ومشكلات البيئة اللذين يأخذان الآن بعدا عالميا . أيضا، يشكل سباق التسلح تهديدا خطيرا لبناء الإنسان، وسوف يتفاقم ويتصاعد هذا الخطر طالما أن القوى المتصارعة فى العالم لم تصل بعد إلى اتفاق معقول، يجنب ويعفى العالم من أخطار جسام إذا ما تجرت، أنفجر معها العالم بأكمله . ويشير الواقع إلى أن مشكلة التسليح هذه باتت مشكلة صعبة ومعقدة تؤرق ضمير الإنسانية، بحيث أصبح فى حكم المستحيل إيجاد علاج ناجح لها ما لم تتدخل يد الله لترحم للبشرية من دمار وفناء

أكيدين . أيضا، فإن الهجرة على مستوى الأفراد، وعدم ركونهم إلى الاستقرار، زادت من صعوبة العمل التعاوني وحالت دون أن يصبح هؤلاء الأفراد جزءا أساسيا من المجتمع الذى يعيشون فيه .

فى ضوء تلك الأمور المتقدمة، أصبح من الواجب التعرف على بعض المهارات التى تمكن من الإسهام، ولو جزئيا، بالجهد التعاونى الذى يهدف حل مشكلات المجتمع . أيضا، أصبح من الضرورى التدريب على المشاركة فى احتفالات الآخرين، والتعاطف معهم فى أفراحهم وأتراحهم، وتعريفهم كذلك على الأساليب الفعالة لمعالجة المنازعات الشخصية، وذلك لتحقيق نوع من العيش التعاونى لهم، إذ أن القدرة على مشاركة الآخرين، والقدرة على إيجاد حلول مناسبة للمنازعات، تعين وتساعد الطلاب (بلا جدال) على تعلم العيش معا حياة آمنة مطمئنة .

وبالنسبة لتحقيق التعاون كقيمة تربوية إنسانية، تستطيع المدارس أن تعد طلابها لمثل هذه الحياة التعاونية بأساليب مختلفة، من أهمها، أن يسود التعاون جميع أفراد العملية التربوية، وذلك يعنى إقامة المجتمع المدرسى على أسس تعاونية . ولكن ذلك لا يتحقق للأسف فى مدراسنا بسبب عدم إدراك ووعى هيئة العاملين فى المدرسة للهدف الحقيقى من وراء تشكيل الجماعات التعاونية التى ترمى فى حقيقتها إلى مساعدة الطلاب على اكتساب مهارات تعاونية تخدمهم فى حياتهم المستقبلية . وبسبب عدم امتلاك نسبة كبيرة من المدرسين لتلك المهارات التى تؤهلهم لإقامة علاقات تعاونية بينهم والطلاب من ناحية، وبين الطلاب بعضهم البعض من ناحية أخرى . أن تضمنين مهارات التعاون والتأكيد عليها كأساس مهم من أسس بناء المنهج كفىل بأن يتيح للطلاب فرصة اكتساب مهارات معينة يستفيدون منها فيما بعد . ويمكن تحقيق ذلك عن طريق عقد الاجتماعات الدورية للفصول، واتباع أساليب التعليم التعاونى، والتدريب على القيام بوظائف الآباء والأمهات . ولكننا نلاحظ أن مثل هذه المهارات المفيدة فى تحسين أساليب الحياة التعاونية بين الطلاب بعضهم البعض داخل المدرسة وخارجها، وبين الطلاب وباقى أفراد المجتمع، لا تعامل على نحو بين واضح كجزء منتظم ثابت من المنهج الدراسى، ويترك ذلك لجهود واجتهادات المدرس، فإن كان المدرس مدركا لأهمية التعاون سعى إلى بث وإكساب مهاراته للطلاب، وإن كان غير ذلك فإنه لن يبال به إطلاقا .

(٤) المحافظة على البقاء :

على الإنسان أن يراجع نفسه بين الحين والحين، ويصحح اختياراته، ويعدل مواقفه، بما يتوافق مع أصول وقواعد أساليب المحافظة على البقاء، وبما يواكب التغييرات الحادة التى يموج بها عصر المعرفة والمعلومات. ففى ظل العولمة، لم يعد لأى شئ صفة الثبات، بدءاً من علاقة الإنسان بنفسه، ومروراً بعلاقة الإنسان بالآخرين وانتهاءً بعلاقة الدول بعضها البعض. الجميع بلا استثناء يعملون باجتهاد كبير من أجل المحافظة على البقاء، فى ظل المتغيرات العديدة التى بات من الصعب ملاحظتها. بمعنى، فى عصرنا الحالى، يرفض الإنسان فكرة الثبات، لأنه يعنى الجمود والتحجر والتقليد، أو لأنه يقوده إلى الخوف من مواجهة النفس ومواجهة الآخرين، مع مراعاة أن الثبات فى الحالة الأخيرة قد يؤدى بالإنسان إلى التوقع على الذات والموت البطء، ولا يحافظ - أبداً - على وجوده الإنسانى.

وإذا كان الإنسان يرفض الثبات، ويفكر بعمق فى التحولات الناتجة عن التجارب السابقة، ويحاول الاستفادة من أخطاء الماضى، ويستقرأ التاريخ ليفهم مضامين التراث الصحيح، وليردك العبر التى يحملها بين جنباته، فعليه أيضاً أن يفكر بعمق فى خطورة الانقلابات الفجائية الناتجة عن الرغبة فى الثواب والخوف من العقاب، وأن يفكر بعمق أكثر فى أمور يبدو مظهرها صالحاً وطيباً، بينما يقود باطنها إلى تدمير الإنسان معنوياً ومادياً. فالادعاء بمواكبة العصر، وركوب موجة الفنتازيا المساندة فيه، دون وجود ضوابط حقيقية تحكم وتتحكم فى مقومات الإنسان الأخلاقية، تؤدى به بلا شك إلى نهاية مزعجة ومفجعة.

وعلى المستوى المادى، إنه لشيء مؤلم حقاً أن يفقد الفرد فى مجتمعنا المعاصر لبعض المهارات الأساسية الكامنة فى صميم قدرته على المحافظة على البقاء، إذ يفقد الفرد الآن القدرة على تحصيل الغذاء الصحى الضرورى، والمحافظة على الصحة البدنية والنفسية. ونلاحظ الآن اتجاهاً قوياً ينبع من نزعة الحداثة والحقول الخضراء لتحل محلها المباني والمساكن لمواجهة الزيادة الرهيبة فى عدد السكان ولانشغال الناس بأمر مادية بحتة، لدرجة أن القادر الفنى أصبح لا يهتم حالياً بزراعة حديقة منزله، لانشغاله بأمر أخرى. أيضاً، باتت نسبة كبيرة من الأفراد لا تمارس رياضة المشى. باختصار، لا يفكر ولا يخطط غالبية الأفراد للاستفادة من المهارات الأساسية للمحافظة على البقاء. لذا، أصبح من أهم واجبات المدرسة أن تطور أساليب الاستفادة من هذه المعارف والمهارات، وتقدمها للمتعلمين بشكل منظم ومنظم. وعليه، يجب أن يتضمن المنهج المدرسى فيما يتضمن تعليم أصول الطهى والتغذية إلى جانب استعمال وسائل

الطب الوقائى وأنشطة اللياقة البدنية، وزراعة الحدائق ومبادئ الصحة النفسية. والأدوار التى يجب أن يقوم بها الآباء والأمهات فى تربية أطفالهم، والتطوير الإيجابى لاحترام الذات، وتوعية المستهلك، والتعرف على أفضل أساليب التغلب على العواطف.

(٥) الاختيار المهني :

إن تفكير الإنسان الصحيح يقود سلوك اختياره المهني من سلوك ذليلى أو سلبى إلى سلوك إيجابى تقدمى، ومن مواطن مسحق لا حول له ولا قوة لأنه مربوط بتلابيب مهنة بعينها، لا يستطيع أن يتخطى حدودها إلى إنسان يفكر لنفسه أو يجهر برأيه فى المهنة التى يعمل فيها، ولا يستطيع أن يتوافق مع مقتضياتها فى ظل الظروف السائدة فيها. بمعنى، من خلال تفكير الإنسان الصحيح، يدرك: (١) بات من الصعب جداً أن يشغل الإنسان وظيفة واحدة طوال فترة عمله المهني، (٢) ليس من الضروري أن يعمل الإنسان فى وظيفة تناسب مؤهله الدراسى، (٣) تغيرت طبيعة الأعمال والأشغال بدرجة كبيرة عما كانت عليه من سنوات قليلة مضت، (٤) المؤهل الدراسى ليس الفيصلى الوحيد لشغل وظيفة أو مهنة بعينها، ولما بجانب ذلك، يراعى صفات شخصية محددة لشغل تلك الوظيفة، (٥) قطاع الأعمال أصبح له سطوة رهيبية على العاملين، لذا قد لا يعرف الإنسان الأسباب الحقيقية للاستغناء عنه فى العمل، وعليه أن يتجه إلى عمل آخر، (٦) تكتيكات المهن قد تبدلت وتغيرت فى السنوات الأخيرة، وتستوجب أن يستمر الإنسان فى التعلم إذا أراد المحافظة على مهنته.

وكمثال لما ذهبنا إليه فيما تقدم، نقول: منذ فترة ليست بعيدة كان مجتمعنا زراعياً. لذا كان ينغلق على عدد محدود من البدائل الحرفية والمهنية التى تعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة. ولكن مجتمعنا يأخذ الآن بأسلوب التصنيع الثقيل والخفيف على حد سواء بجانب الزراعة. لذا، تعددت المهن والحرف بدرجة كبيرة، وبالتالي تزداد عملية الاختيار المهني صعوبة يوماً بعد يوم. وذلك يدعو إلى تساؤل الفرد لمثل هذه الأسئلة: ما نوع الحياة التى أتمنى أن أحيها؟ وأين أقضى هذه الحياة؟ وماذا أنوى أن أفعل بها؟ ونظراً لتباين ميول وقدرات الأفراد فإن كل فرد يختار ما يناسبه من أنماط الحرف أو المهن المختلفة، لذا نجد بعض ممن يؤمن بأهمية الإنجاز ينتقون حرفاً تتطلب من أصحابها عدداً كبيراً من ساعات العمل بينما يقع اختيار آخرين على مهن لا تدر عليهم عائداً مادياً كبيراً ويكتفون بالدخل الذى يؤمن لهم حياة بسيطة فى مجتمع آمن. وهناك من يعول أسرة كبيرة، لذا يحصل على أعمال إضافية على

حساب أوقات فراغهم . كما أن هناك من يتطوع للقيام ببعض الأعمال دون النظر ما إذا كانت هذه الأعمال ستدر عائدا ماديا أم لا .

إن عملية اختيار المهنة المناسبة لى عملية صعبة ومعقدة إذ فى ضوء هذا الاختيار، يتحدد أسلوب حياة الفرد المستقبلى . ومما يجعل عملية الاختيار صعبة هو أنها تتأثر بمتغيرات عديدة . كما أن كثير من المهن الحديثة يتطلب من المهارات ما لم تتضح أبعاده وملامحه بعد، ولكن ما دور المدرسة فى عملية اختيار المهنة المناسبة للطلاب؟ يجب أن تعمل المدرسة جاهدة على تعليم الطلاب التفكير، لأنه السبيل الوحيد الذى يساعدهم على اختيار المهن المناسبة فى ضوء قدراتهم الحقيقية .

(٦) الديمقراطية :

توجد علاقة قاطعة ومؤكدة ووثيقة الصلة بين التفكير والديمقراطية، فمن خلال التفكير تظهر مفردات الديمقراطية واضحة جلية للعيان، ومن خلال التفكير الصحيح يستطيع الإنسان الذى يعيش فى ظل نظام شمولى - لو أراد ولجتهد - أن يكتشف قسوة وسوء ذلك النظام، ويتمنى لو أتاحت أمامه الفرصة والحرية ليعيش تحت مظلة الديمقراطية، ومن خلال التفكير يكتشف الإنسان أن غياب حرية التنظيم فى الممارسات الحياتية، يرجع بالدرجة الأولى إلى غياب الديمقراطية عن تلك الممارسات، وذلك يودى إلى مشكلات صعبة، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم ثقافية لم اقتصادية لم دينية لم لغوية .

خلاصة القول يجب أن يتسم الإنسان الحر بالتفكير الديمقراطى، وأن يكتسب مقوماته، ويؤكد فى جميع أعماله وأقواله، وأن يعترف به كمنهجية مهمة وأساسية فى إدارة الحوارات والمناقشات بينه وبين الآخرين، وأن يدرك أنه الأسلوب المثالى لتدراك الأخطاء وتصحيح المسار وللتقدم نحو الأفضل .

وبعامة، تفقد الحياة عديداً من المعانى الجميلة والسامية، إذا ساد التفكير الشمولى وانتفى التفكير الديمقراطى فى التعاملات بين الأفراد بعضهم البعض .

المقولة السابقة صحيحة فى معناها ومضمونها، ويؤكدها السيد يسين فى مقال بعنوان "مفردات الديمقراطية" نشر فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٠/١١/٢٠٠٥ . ولقد جاء ضمن ما جاء فى هذا المقال، الآتى:

الديمقراطية ليست مجرد نظام سياسى أثبت نفسه بكفائه وفعاليته فى سوق المنافسة العالمية التى دارت طوال القرن العشرين بين لغاشية والنازية والشيوعية

التفكير من خلال استراتيجيات التعليم بالاكتشاف
والاشتراكية، لكنها أسلوب حياة بمعنى أنها إن لم تمارس فى البيت والمدرسة والجامعة
والمصنع والمؤسسة، بل وفى الحوار بين منظمات المجتمع المدنى، فإن تجلياتها
السياسية تصبح بلا معنى، أو بمعنى أدق ستقتصر إلى جوهرها الحقيقى .

وفى ضوء هذه الملاحظات ينبغى التفرقة بين إجراءات الديمقراطية وقيم
الديمقراطية، وإجراءات الديمقراطية قد تتمثل فى الانتخابات وفى إجرائها بصورة
دورية، إشارة إلى أن ممثلى الشعب ينبغى أن يتم اختيارهم من قبل الجماهير، غير أنه
إذا جرت انتخابات فى غيبة الالتزام بقيم الديمقراطية نصبح أمام موقف جد خطير .

وحيث أن أولى خطوات الإصلاح السياسى العربى هى تحول الدول البوليسية
العربية إلى دول قانونية فى ضوء التفرقة الدستورية المستقرة بين دولة البوليس التى لا
يطبق فيها مبدأ سيادة القانون، ودولة القانون بكل الضمانات التى يتضمنها، من وجود
دستور ومدونات قانونية ومحاكم مستقلة وضمانات للمتناقضين إلا أن هذه هى مجرد
خطوة أولى حاسمة فى تفكيك البنية السلطوية السائدة فى المجتمع العربى المعاصر .

ولا شك أن هناك قائمة طويلة تشكل مفردات الديمقراطية، وعلى رأسها احترام
حقوق الإنسان واحترام التعددية .

ويمكن القول إننا نعيش فى عصر العولمة بتجلياتها السياسية والاقتصادية
والثقافية والاتصالية، وشعارات العولمة المرفوعة هى الديمقراطية واحترام حقوق
الإنسان والتعددية، وبغض النظر حول ما إذا كان احترام حقوق الإنسان قيمة مستقلة
بذاتها أو هى من صميم مفردات الديمقراطية، فلا شك أنها أصبحت شعارا عالميا
يتمسك المجتمع الدولى بتطبيقه فى كل بلاد العالم، بل إن المجتمع المدنى العالمى الذى
هو من إفراز العولمة وثورة الاتصالات الكبرى، يجعل احترام حقوق الإنسان فى مقدمة
القيم التى يدافع عنها .

والنظم السياسية العربية السلطوية لم تجرؤ على أن تعترض جهارا على تطبيق
موثيق حقوق الإنسان التى وقعت على أغلبها، لذلك ومن قبيل المراوغة رفعت حجة
الخصوصية الثقافية فى مواجهة عالمية حقوق الإنسان، ومحتوى هذه الحجة أنه مع
التسليم بعالمية حقوق الإنسان، إلا أنه فى التطبيق لابد من مراعاة الخصوصيات الثقافية
للدول العربية والإسلامية، مما يمنع من تطبيق بعض قواعد حقوق الإنسان .

والواقع أن الخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية حقيقة لا شك فيها، بحكم التاريخ الاجتماعى الفريد لهذه المجتمعات، وسيادة أنساق من القيم لا تتفق بالضرورة مع أنساق القيم الغربية، غير أن إطلاق هذا شعار فى هذا المجال بالذات الغرض منه فى الواقع التهرب من تطبيق قواعد حقوق الإنسان العالمية.

وهناك اتفاق - على سبيل المثال - على أن أى متهم ينبغي أن يحاكم أمام قاضيه الطبيعى، ولا بد له أن يتمتع بضمانات قانونية تكفل له محاكمة عادلة، من بينها ضرورة استعانةه بمحام، وعدم تعرضه للتعذيب، والالتزام الدقيق بقواعد الإجراءات الجنائية المتفق عليها فى كل بلاد العالم المتحضر. فى هذه المجالات وغيرها ليس هناك مجال للتملل بحجة الخصوصية الثقافية لعدم تطبيق قواعد حقوق الإنسان العالمية.

وإذا أضفنا على ذلك حقوق الإنسان السياسية، وحق المواطنين فى الانتخاب الحر المباشر لمن يمثلونهم فى المجالس المحلية والنيابية، لأدركنا أن إعمال هذه الحقوق بشكل صحيح إنما يمثل ضربة حقيقية لصميم بنية النظام السلطوى الذى يقوم على القهر السياسى للجماهير، الذى حين يريد أن "يتجمل" ويلبس أردية الديمقراطية، فإنه يلجأ على الاستفتاءات والانتخابات المزورة هروباً من قاعدة تداول السلطة.

غير أن حقوق الإنسان لا تتعلق بالحقوق القانونية أو السياسية، لكنها - أكثر من ذلك - تتعلق بالحقوق الاقتصادية، وفى هذا المجال فإن الدولة السلطوية العربية التى تسيطر على عملية صنع القرار فيها العشوائية التى أدت إلى إهدار المال العام، أدى إلى حرمان الجماهير العربية المريضة من حقها فى العمل المأجور المنتظم، وفى التمتع بالتأمينات الاجتماعية والصحية التى هى حق من حقوق الإنسان فى أى مجتمع معاصر.